
عائد إلى ظلال الأترُج
تأليف: براءة الشامي
رسوم: عمر السامرائي
Free Thinking Center
مركز التفكير الحر

عائدٌ إلى ظِلالِ الأُترُج

براءة الشامي





عائد إلى ظلال الأُترُج

تأليف: براءة الشامي

رسوم: عمر السامرائي

القياس: 14×21 سم

عدد الصفحات 127ص

ISBN

الطبعة الأولى

1444هـ - 2023م



من إصدارات مؤسسة السبيل

www.al-sabeel.net



طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مركز التفكير الحر



+966505284259

freethinking@windowslive.com



الفصل الأول



عائد إلى ظلال الأُترُجّ

هناك على سفح جبل شامخ أخضر كبير ، تتناثر مجموعة من البيوت الريفية الجميلة بعشوائية لتشكل قرية صغيرة ، يزينها مسجد كبير يربض بشموخ وعزة على رأس التل ، تصدح التكبيرات من مئذنته كل يوم لتملأ الوادي عظمة وخشوعًا ، وتُضفي على القرية سكينة وأمانًا ، فتأخذ قلب كل من يراها من بعيد ، متمنّيًا أن يحظى بفرصة العيش فيها ولو لأيام قليلة من حياته ، بعيدًا عن ضجة المدينة وصخب الحياة فيها.

يتمتع أهلها بهوائها العليل ، وينعمون بخيراتها التي لا تنتهي ، يفتقدون لكثير من الخدمات التي يتمتّع بها أهل المدينة ، لكنهم لا يشعرون بنقص حقيقي في حياتهم اليومية ، بل يدّعون أن رغيف خبز طازج في حقول القمح والزيتون ألذّ من كل ما يتمتع به أهل المدن من طعام وشراب وأموال وخدمات.. هكذا يقولون.

دارت الأيام.. ولم تعد القرية هادئة آمنة مطمئنة ، ولم يعد هواؤها يكفي ليشفي القلوب والأرواح ، فالجراح كانت أعمق من ذلك بكثير.

هناك في بيت صغير من بيوتها أظلمت الدنيا تمامًا ، واجتمعت المصائب والكربات على طفل صغير لم يفقه بعدُ معنى الحياة.

جلس في زاوية يترقب ، كانت أصواتهم المرعبة تقترب من البيت شيئًا فشيئًا ، يعلو ضجيجهم المخيف كلما اقتحموا بيتًا من بيوت الجيران ، لتختلط أصواتهم المرعبة مع أصوات صبية صغار يبكون بلا توقف ،

وتوسّـلات مـن آبـاء وأمهـات يطلبـون الرحمـة.

كان الصـوت يقتـرب ، ووقـع خطواتهـم قـد صـار أقـوى وأكثـر وضوحًـا وتسـارعًا.

فجـأة.. فُتِـح بـاب البيـت بقـوة ، واقتحمـه جنـود يحملـون السـلاح يبحثـون عـن شـيء مـا ، لكـن مـاذا يريـدون مـن سـكان قريـة حدوديـة نائيـة صغيـرة دمّروهـا مـن قبـل وقتلـوا الكثيـر مـن أهلهـا؟ هـل يريـدون فعـلًا القضـاء علـى مـن بقـي فيهـا مـن أنـاس ضعفـاء؟

-من في البيت؟

تراكـض الجنـود في أطـراف المنـزل البسـيط يبحثـون يمينًـا وشمـالًا عـن أهـل البيـت ، لم يتركـوا غرفـة ولا زاويـة إلا بحثـوا فيهـا.

وقبل أن يهمّوا بالخروج صرخ القائد قائلًا:

-أيّهـا الجنـديّ ، ابحـث تحـت هـذا السـرير المتهالـك ربّمـا وجدنـا تحتـه مـا نريـد.

رفـع الجنـدي مـلاءة السـرير ، ليجـد طفـلًا في السـابعة من عمـره ينظـر بعينـين خائفتـين وكأنـه يـرى المـوت علـى شـكل بشـر.

كانـت أوصالـه ترتعـد مـن شـدة الخـوف ، ازرقّـت شـفتاه ودمعـت عينـاه وصمـت لسـانه عـن النطـق بحـرف واحـد

-أين بقية أهلك يا ولد؟ أين والداك وإخوتك؟ هيا تكلم ، لا تخف لن نؤذيك!

كان قلبه يتخبّط في صدره بعنف ، كعصفور في قفص يضرب بجناحيه عبثًا باحثًا عن مخرج ، عجز عن الرد وكأن لسانه قد رُبط بحبل غليظ ، لم يستطع أنس أن ينطق بحرف واحد ، كان يتمنى أن يكون هذا مجرّد كابوس سيصحو منه ويركض إلى حضن أخيه كما في كل مرة لِيُهدّئ من روعه ويعود لينام بعمق من جديد.

لكن ذلك لم يحدث هذه المرّة.

أخذوا أنسًا ووضعوه في شاحنة ضخمة ، لينضم إلى عشرات الأطفال في مثل سنّه ، للذهاب بهم إلى القاعدة العسكرية القريبة لتجهيزهم لمغادرة البلاد.

كان حسين يراقب المشهد من بعيد برعب وذهول ، سقطت من بين يديه كسرات خبز وتفاحة صفراء ذابلة ، كانت تلك الكسرات وجبة طعام أحضرها بعد طول بحث لتسدّ جوع أنس ، لكنه وقف متفرجًا على مشهد اختطاف أخيه والعجز يكبّل كلتا يديه ، فكان الصمت خياره الوحيد ، ليبتلع قهره كسكين غُرست في حلقه فمزّقت قلبه وزلزلت كيانه.

وراحت مئات الأفكار تتصارع في رأسه:

ما هو الحل؟ هل يمكن أن يتخيّل حياته دون أنس؟ هل يمكن أن يحتمل فقد أخيه بعد أن فقد أبويه مع بداية الغزو الهمجي من دولة «land rocks أرض الصخور» المجاورة؟

إلى أين يذهبون به؟ بل ماذا يريدون منه؟

لم يكن لدى حسين وقت كاف ليستغرق في التفكير ، فما إن تحرّكت الشاحنة حتى ركض مسرعًا ليتمسّك بكل قوته بعمود حديدي في الجهة الخلفية منها ، واضعًا أصابع قدميه على حافة صغيرة ، ليشعر كلما اهتزت أنه على وشك السقوط ، فيشد جسده بصعوبة متمسكًا بخيط من أمل في أن يجد طريقة لاسترجاع أخيه من هؤلاء المجرمين.

بدأت الشاحنة تخفّف سرعتها عندما اقتربت من القاعدة العسكرية ، قفز حسين إلى الأرض واختبأ خلف كوم من الرمل والحجارة ، فتحت البوابة ودخلت الشاحنة وأغلقوا خلفها الباب من جديد.

بقي حسين ينتظر فرصة للدخول ، فجاءت شاحنة محملة بالمؤن ، وقفت هنيهة تنتظر الإذن بالدخول ، وبهدوء كالقط ، تسلل إلى الشاحنة وجلس القرفصاء بين الأكياس واضعًا فوقه كيسًا فارغًا وجده مرميًا في أرض الشاحنة.. لم يلحظه أحد.

دخلت الشاحنة إلى قلب القاعدة العسكرية ، وتوقفت أمام مخزن المُؤَن ، نزل السائق ليستدعي بعض الجند لإفراغ الشاحنة ، ليجد حسين في تلك اللحظة فرصة للنزول والاختباء خلف حائط صغير ، عساه يرى ما يدل على وجود أخيه وبقية الأطفال.



حلّ الليل، وبدأت تمطر بغزارة، كانت ثيابه مبلّلة تمامًا، وقدماه غارقتين بالطين، والخوف يملأ قلبه من احتمال اكتشاف أمره، ماذا سيفعلون به حينها يا ترى؟ هل سيقتلونه بإطلاق الرصاص؟ أم سيعيش بقية عمره في السجن ويتعرض للتعذيب ليل نهار؟ هل سيتمكن فعلًا من الوصول لأنس؟

-يارب أنقذني وأخي من هذه المصيبة، أين أنت يا أبي، كم أحتاجك اليوم بجانبي، أنا ابنك حسين الذي كنت تريد أن تراه رجلًا، ها أنا اليوم في موقف يخشاه أشد الرجال، ماذا عليّ أن أفعل؟

كان حسين فتى في الخامسة عشرة من عمره، هو الأخ الأكبر والوحيد لأنس، يربّيه ويرعاه بعد أن فقد دفء أبويه في الحرب التي لم تضع بعد أوزارها، فاضطر ليمارس دور الأبوة مبكرًا جدًا، وربما دور الأمومة كذلك.

كان حسين طويل القامة، نحيل الجسد، عيناه واسعتان بالقدر الذي يكفي لتكونا لأنس عالمًا من دفء وحنان، وابتسامته جميلة تكفي ليذوق أنس من خلالها طعم السعادة، منحته حياة القرية سُمْرةً جميلة زادته رجولة وهيبة، ومنحته قوّةُ شخصيته وحُسْنُ خُلُقه محبة في قلوب الناس.

كان أكبر همّ يحمله أن يرى والده راضيًا عنه، فهو الابن الأكبر الذي ينتظر منه الوالدان عادةً تحقيق كل أمنياتهم، فربما حمّلوه من المسؤوليات ما يُثقِلُ كاهله، ليروا فيه الرجل الذي يرغبون أن يكون.

لكنه كان يتمنى شيئًا آخر مختلفًا تمامًا، نعم.. هو يحب أن يرضي



والـده ، فيجتهـد في مسـاعدته في الحقـل ليجنـي أفضـل الثمـر ، يهتـم بالـزرع والدواجن والأبقـار كمـا يحـب أبـوه ، لكـن عينيـه كانتـا تنظـران إلى مسـتقبل مختلـف ، مشـرق جـدًا ، بشـكل لا يتناسـب مـع هـذا الواقـع.

أبـو حسـين كان مزارعًـا بسـيطًا كأغلـب سـكان القريـة ، يخـرج إلـى أرضـه فجـرًا يحرثهـا ويسـقيها ويعـود عنـد مغيـب الشـمس.. كان شـديدًا بعـض الشـيء ، هكـذا كان يـراه حسـين ، فعصـاه معلقـة دائمًـا علـى جـدار الغرفـة يضـرب بهـا مـن يتمـادى في الخطـأ ولا يتعظ بالنصـح والإرشـاد ، كان منظرهـا المخيـف كفيـلًا وحـده بـأن يلتـزم الواحـد منهـم بالأمـر قبـل أن يضطـر والـده لاستخدامها مـع أنـه لم يسـتخدمها إلا نـادرًا ، لكنـه كان يشـعر أنهـا جـزء مهـم في عمليـة التربيـة ، هكـذا ربّـاه أبـوه ، وهكـذا يريـد أن يربّـي أولاده ، فـلا وسـائل إعـلام هنـا تقتـرح عليـه طريقـة أفضـل في التربيـة ولا متخصّصـين يشـرحون لـه أضـرار القسـوة والشـدة.

ورغـم كل تلـك الشـدة الظاهـرة ، إلا أنـه كان رجـلًا حنونًـا طيـب القلـب ، وكأغلـب رجـال تلـك القريـة لم يكـن يحسـن التعبيـر عـن حبـه بلسـانه ، لكـن أهـل بيتـه كانـوا يلمسـون حنانـه وعطفـه عندمـا يـرون بريـق عينيـه وإشـراقة وجهـه كلمـا قدّمـت لـه زوجتـه كأس الشـاي المحلّـى مُرحّبـة بعودتـه مـن العمـل ، ليضـع في يدهـا –سـرًا– حبـة شـوكولا اشـتراها خصيصًـا لهـا مـن دكان القريـة ، مـن ذلـك النـوع الفاخـر غالـي الثمـن ، في حيـن يقـدم لأنـس بعـض البسـكويت وقطـع حلـوى رخيصـة محليـة الصنـع.



كان ولداه يشعران بحبه عندما ترتسم ابتسامته على وجهه وهو يرى حسينًا يَؤمّ أبناء الجيران في صلاتهم

ويرى أنسًا يتقافز فرِحًا كلما وجد دودة الربيع الملوّنة ، ليحملها بين كفيه بلطف ، فتداعب أوبارها كفه الصغير وهي تمشي مسرعة على يده باحثة عن مهرب ، لكن أنّى لها ذلك؟ فعلبة الديدان الخاصة بأنس تنتظرها لتنضمّ إلى بقية المجموعة!!

أنس ، ذلك الطفل كثير الحركة ، طيب القلب ، جميل الملامح ، كانت عيناه حادّتين كعيني صقر ، وشعر حاجبيه أطول بكثير من المعتاد.. كانت تمازحه أمه كلما نظرت في وجهه الجميل وتقول: (رتب حاجبيك جيدًا ، أريد أن أرى أمامي طفلًا بريئًا لا طيرًا جارحًا) ، فإذا أراد أن يتصارع مع حسين عبس وجهه ومسح على شعر حاجبيه باتجاه الأعلى ونفخ خديه الناعمين وشمّر أكمام قميصه ، وبدأ بالضرب على الأرض برجليه بقوة ليُشعر خصمه بالخوف والشدة ، مما يمنحه ظرافةً محبوبةً وشخصية واثقة.



كانت تلك عائلة حسين ، حسين الذي كان لا يملك إلا الدعاء والتضرع إلى الله ليحميه في تلك المغامرة الخطرة التي لم يتوقّع يومًا أن يخوضها ، وكانت تلك الذكريات تزيده إصرارًا لاسترجاع رفيق دربه الذي لم يبق له في الحياة غيره.

توقّف المطر.. وهدأت الريح ، وبدأ النور يظهر في السماء بعد انقشاع الغيوم معلنًا بَدْءَ نهار جديد.

وقبل شروق الشمس بقليل سمع حسين صوت طائرة تقترب شيئًا فشيئًا ، إنها طائرة كبيرة بلا شك ، فصوت هبوطها على المدرج كان مزلزلًا ، نزل منها مجموعة ضباط ليجدوا رئيس القاعدة في انتظارهم على المدرج.

تسلّل حسين لأقرب مكان يمكنه فيه سماع ما يتحدّثون حوله ، حاول أن يفهم مضمون الحوار ، فوصلت لأذنيه جملة (الأطفال الأشقياء) لكن هبوط طائرة أخرى على المدرج حال دون سماعه لخطتهم ليبقى تائهًا في حيرته.

-هل سيأخذون الأطفال بهذه الطائرة؟ أم بتلك التي هبطت قبل قليل؟ ماذا سيفعلون بهم؟ أين سيضعون مجموعة أطفال بعمر السابعة؟ هل هي تجارة أعضاء بشرية؟ أم شكل جديد للحرب لقتل قلوب الناس وإذلالهم وتدمير معنوياتهم؟

لن أتمكن من معرفة الطائرة التي سيغادرون بها إلا لو دخلت مكتب الإدارة.

هكذا كان يفكر ، فصعوده إحدى الطائرتين بعشوائية قد يذهب به لوجهة تختلف تمامًا عن وجهة أخيه.

بقي مُتَخَفِّيًا يُحاول معرفة مكان مكتب الإدارة ، فرأى الضباط يتوجهون بصحبة المدير إلى غرفة ضخمة يقف أمامها مجموعة حرس.

-لا بد أنها غرفة المدير ، هذا هو هدفي القادم إذن

دخل الجميع ، وبقوا في الداخل قرابة ثلاث ساعات كانت كسنة كاملة مرّت على حسين ، رأى بعدها عمالًا يعدّون مائدة تحت أشعة الشمس في ساحة القاعدة ، فاستبشر خيرًا.

بعد عشر دقائق ، تم استدعاء الإدارة والزُوّار لتناول الفطور.. خرجوا جميعًا الى الساحة وبقي المكتب فارغًا إلا من مجموعة حرس يقفون أمام الباب ، لا بد أنها اللحظة المناسبة التي ينتظرها حسين.

التفّ حسين خلف الغرفة ، محاولًا إيجاد نافذة أو باب خلفي ، ووجد ما أراد فعلًا.

فتح النافذة ودخل منها ، وتوجه مباشرة إلى المكتب.. وجد عليه ملفات ضخمة يبدو أنها كانت محل اهتمام الضيوف ، فتح الملف الأول فوجد فيه أسماء مجموعة من أطفال البلدة قد وُضعت في جدول كبير ، وبجانب اسم كل منهم خانة فيها اسمه الجديد! واسم الأسرة المضيفة!

-ماذا يخطّط هؤلاء؟!

ذُهِل حسين عندما رأى تلك القوائم ، عشرات الأسماء لأطفال قريته والقرى المجاورة ، لكن ، أين سيجد اسم أخيه؟

بدأ بفتح الملفات واحدًا تلو الآخر باحثًا عن أي معلومة عن أنس ،

خمس دقائق مرّت ولم يحصل على مراده ، ربما كان خوفه وتوتره يمنعانه من التركيز في الأسماء

-هل مرّ اسم أخي ولم أنتبه له؟

هذا هو ، إنه اسم أخي أنس ، اسمه الجديد جورج ، الضابط المسؤول عنه «مارك» ، اسم العائلة الجديدة «ب..ي..ر.. » ، تبًّا لكم ما هذا الاسم؟! عليّ أن أكتبه لأتمكن من حفظه!!

شد الورقة بنزق ليسجل بقية البيانات ، اسم المدينة والحي والشارع ، لكن يده ارتطمت بعلبة أقلام على المكتب لتقع أرضًا وتصدر صوتًا عاليًا.

فتح الحراس الباب مسرعين ورأوا حسينًا في غرفة المكتب وبين يديه أكوام الورق المبعثر!





-ماذا تفعل هنا أيها اللص؟ اترك هذه الأوراق من يدك!

رمى حسين الأوراق وركض مسرعًا إلى النافذة التي دخل منها ، فتح الجندي رشاشه نحوه علّه يتمكن من قتله ، فأصاب قدمه برصاصتين ، رغم ذلك تمكن من الإفلات منهم وفرّ هاربًا ، لكن.. أفلت إلى أين؟ إلى قلب الساحة في القاعدة العسكرية!!

على بعد أمتار قليلة وجد دراجة نارية والمفتاح في داخلها قد تركها جندي للتو ، فركب الدراجة وانطلق بأقصى سرعة نحو البوابة..

-البوابة.. أغلِقوا البوابة..

صرخ الجنود بالموظفين الذين كانوا يستقبلون شاحنات الطعام كعادتهم كل يوم في مثل هذا الوقت.

زاد حسين من سرعته وتمكّن من الخروج بلحظة خاطفة قبل أن يتمكن الضباط الذين يتناولون طعامهم من استيعاب ما يحدث!!





بدأ إطلاق النار بكثافة ، فأصيب بطلقة ثالثة في رجله ذاتها وكأنهم قد قرروا إتلافها تمامًا.

كان النزف شديدًا.

بقي حسين على متن الدراجة يطير بأقصى سرعة ، لكن منحدرًا كان بانتظاره بعد مسافة قصيرة ، حاول أن يهدّئ سرعته ويغير اتجاهه لكن للأسف ، فات الأوان.

تدحرج حسين من أعلى المنحدر وارتطم بالصخور مرة بعد مرة ، ليصل إلى الأسفل بلا حراك.

«لا بد أنه قد مات» رددها الجنود شامتين وهم ينظرون إليه ونشوة النصر تملأ نفوسهم الخبيثة ، ورجعوا إلى مقرهم مطمئنين.

★★★★★★★

جلس الأطفال في قبو داخل القاعدة العسكرية يلتصق كل واحد بالآخر باحثًا عن بعض الدفء والأمان ، فصاروا كأنهم كتلة واحدة من لحم غضٍّ طرِيٍّ وقلوب تنبض باضطراب ، فتُحدِثُ في النفوس ضجيجًا لا يهدأ ، وكأن الدنيا تعيش زلزالًا مدمرًا يأبى أن ينتهي.

فُتِح الباب أعلى الدرج ، فدخل منه ضوء قوي آذى عيونهم الصغيرة ، وقف جندي أمام الباب ونظر إليهم من الأعلى وصرخ بصوته الغليظ:

-هيا اصعدوا واحدًا تلو الآخر ، سننطلق بعد قليل ، إياكم أن تحدثوا ضجيجًا!

بدأ الأطفال بالصعود خارج القبو ، وتم توزيعهم إلى عدة طائرات تتجه كل واحدة منها إلى مدينة مختلفة.

صعد أنس إلى متن الطائرة مع مجموعة من الأطفال ، جلس على أرضها وضم ركبتيه إلى صدره ، وقد تاهت عيناه وهو ينظر هنا وهناك محاولًا فهم ما يحدث.

ما هي إلا لحظات.. وانطلقت الطائرة.

تحقق حلمه الذي طالما حلم به ، أن يركب طائرة مرة في حياته بدلًا من أن يكتفي بالتلويح لها من سطح بيته في القرية ، أن يطير في السماء قرب الغيوم وينظر للأرض من علو شاهق ليرى قريته الجميلة من الأعلى ويلوّح لأمه بحرارة لتشاركه سعادته ، فلا يمكن لسعادته أن تكتمل إذا لم يرها في عيون أمّه فتبادله ضحكاته وتشاركه مشاعره.



لقد تحقّق حلمه.. لكن ليس كما تمنّاه البتّة.

كان قلبه يبكي بكاء مرًّا ، في حين كان يمنع عينيه من أن تدمع ، فالبكاء بعد اليوم ممنوع! هكذا أخبروه.

استمرت الطائرة بالتحليق لعشرين دقيقة فقط ، لتهبط في مدينة حدودية في «أرض الصخور» ، كان هبوطها شديدًا مؤلمًا اهتزت منه أرواحهم وقلوبهم ، وهناك في المطار كانت حافلة بانتظارهم ، خرجت بهم لتبدأ عملية فرزهم وتوزيعهم إلى الأسر الجديدة التي ستحتضنهم إلى أن يكبروا ويصبحوا جنودًا مخلصين لدولة «أرض الصخور» ، هكذا كانوا يخطّطون.

كانت خساراتهم في الحرب مع دولة «بحر» المجاورة كبيرة ، فقدوا فيها الكثير من جندهم ، وأرادوا قبل انسحابهم المتوقع أن يأخذوا الأطفال ليكونوا نواة جيشهم في المستقبل القريب.

توقفت الحافلة ، وكان النداء باسم أنس هذه المرة ، تحرك الصغير بخوف نحو المجهول ، نزل من الحافلة ليجد امرأة في منتصف عقدها الرابع بانتظاره ، استقبلته بابتسامة لطيفة ، فاطمأنت نفسه قليلًا ، قليلًا فقط.

أدخلته بيته الجديد ، كان بيتًا كبيرًا من طابقين ، أثاثه مرتب جميل ، مجهّزًا بتقنيات لم يرها من قبل في قريته.

-أهلًا بك يا أنس ، بعد اليوم سيكون اسمك «جورج» ، هل أخبروك

بهذا؟

اسمي «ماري» ، يمكنك أن تناديني «ماما» سيأتي زوجي بعد قليل لأعرّفك عليه ، سيكون هو أبوك الجديد.

لم يتكلّم أنس كلمة واحدة.

-جهّزتُ لك هذه الملابس الجديدة.. انظر هنا: هذه غرفتك ، وهذا سريرك ، وانظر إلى الرسوم الجميلة على الحائط ، إنه «سوبرمان» لا بدّ أنه بطلك المفضل.

هذه خزانتك مليئة بالألعاب ، وهنا طاولتك وجهاز الحاسوب ، هل تعرف كيفية تشغيله؟

هزّ رأسه يمينًا وشمالًا ليخبرها بأنه لا يعرف ذلك ، بدأت أنفاسه تهدأ رويدًا رويدًا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة.

هل سيكون بخير فعلًا في الأيام المقبلة؟

بعد قليل حضر زوجها «مارك» إلى البيت ، رجل ضخم عابس الوجه ذو لحية كثّة ، يرتدي لباسًا عسكريًا ويحمل مسدسًا معلقًا بحزام بنطاله ، يشغَل وظيفة ضابط في الجيش على ما يبدو.

تم فرز أنس إلى بيته ليتربّى في عائلة تحمل الولاء لجيش أرض الصخور ، فيكتسب منها ما يريدون من تعاليم وقيم.

توجه نحوه وقال:

-أهلًا بك جورج ، أنت اليوم فرد من عائلتنا ، كل ما أرجوه منك أن تبقى هادئًا!!

كانت أول ليلة له في غرفته الجديدة ، أغلق الباب على نفسه متأملًا حوله:

-هل سأعيش هنا للأبد؟ هذا البيت جميل جدًا ، لكن أمي ليست هنا! هل ستكون هذه المرأة أمًّا لي بدلًا منها؟ ربما كان ذلك ، لكنني لا أريد سوى أمي!

كانت أمه «سمية» قبل وفاتها ربة منزل لطيفة طيبة ، كان قلبها نقيًا كنقاء هواء القرية ، وبسيطة كبساطة الحياة فيها.

استطاعت بكلماتها الدافئة أن تملأ أهل البيت قناعة ورضا رغم ضيق حالهم ، وأن تُحيل بيتها البسِيط جنّة لساكنيه بلمساتها السحرية وحسن تدبيرها ، ففي كل زاوية منه أَصِيص ورد ينثر حوله العطر والجمال ، وعلى كل سرير ملاءة بيضاء ووسائد بيضاء نظيفة مطرزة بالورود ، فكان بيتها كلوحة فنية تراثية تعبر عن أرقى أنواع الجمال ، الجمال الذي تصنعه البساطة.

وهناك في زاوية من أرض الدار تفوح رائحة الخبز كل صباح لتدغدغ أنوف أطفالها ، ويسيل لعابهم أكثر وهم يرونها ترشّ الزعتر على فطائرها لتنضج على مهل على التنور.

أجمل ما في تلك الدار شجرة «أُترُجّ» كبيرة ضخمة ، والأترجّ نوع من الحمضيات ثماره تشبه الليمون ، ولكنه أكبر حجمًا ، ذو رائحة جميلة نفّاذة ، وعلى طاولة تحت الشجرة وضعت أمه مصحفًا وكتابًا لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تقرأ منه لأطفالها كل يوم قبل غروب الشمس ، فتعلّمهم الدين والأخلاق وفنون التعامل مع الناس ، فتخرج الكلمات من فمها ممزوجة بفطرة نقية ومحبة صافية وقد ارتبطت حلاوتها في نفوسهم بعطر الأترج ، فكانت كلماتها تجري في شرايينهم مجرى الدم ، لتمنحهم من الوعي والفهم والإيمان ما يعينهم على تجاوز فتن هذه الدنيا وصعوباتها.

لكن أنسًا كان صغيرًا حين فقد أمه ، وحين فقد مجلس القرآن ، فهل تزوّد بمؤونة إيمانية تكفيه ليواجه كل هذه التحديات؟



الفصل الثاني



بعد عشر سنوات:

-جـوارب بقطعـة نقديـة واحـدة ، تنـاسـبك أيهـا الفـتى ، أرجـوك اشـتر مـني زوجـين فقـط لأعـود إلى أطفـالي ببعـض الخبـز.

نظـر جـورج نحـو بائـع الجـوارب نظـرة ازدراء ، كان رجـلًا عجـوزًا طويل القامـة ، لـه لحيـة بيضـاء طويلـة تكـاد تصـل أسـفل بطنـه ، يغطـي رأسـه بوشـاح أبيـض كبـير ، سـاقه خشـبية تزيـده غرابـة ويحمـل عـكازًا خشـبيًّا معوجًّـا ، فبـدا وكأنـه عجـوز هـارب إلى عالمنـا مـن مشـهد مـن فيلـم تاريخـي قـديم ، لكنـه ليـس كذلـك ، بـل بائـع متجـوّل يحمـل جـوارب بيديـه المرتجفتـين باحثًـا عـن لقمـة خبـز لا أكثـر.

-لا حاجة لي بالجوارب ، انصرف من هنا أيها المتسوّل.

مدّ العجوز يده إليه وأمسك بذراعه متوسّلًا

-أرجوك ، زوجين لا أكثر!

دفعـه جـورج بقـوة وأوقعـه أرضًـا ، نظـر إليـه بعينيـه الحـادتـين نظـرة غضـب ونَهَـرَه قـائلًا:



-قلت لك لا حاجة لي بالجوارب ، ألا تفهم؟!



انصرف جورج تاركًا العجوز على الأرض ينفض الغبار عن ثيابه الممزّقة، ابتعد عنه أمتارًا قليلة، فسمع العجوز يُهَمهم ويقول:

-رتب حاجبيك بشكل لطيف في المرة القادمة، أريد أن أتحدث مع فتىً طيب لا مع طير جارح!

نزلت كلمات العجوز كالصاعقة على رأسه، التفت إليه مستغربًا، وعاد أدراجه يتفحص الرجل، نظر إليه بتمعن، ثم انصرف من جديد يمشي بخطىً بطيئة مطأطئًا رأسه.

عاد إلى البيت، كالعادة لا أحد في استقباله، فماري ومارك في أعمالهما، ذهب إلى المطبخ، فتح الثلاجة ليبحث عن شيء يأكله، أخرج شريحة من اللحم «الهمبرغر» ووضعها في مقلاة صغيرة وقام بتحميرها، وتوجّه إلى غرفته حاملًا طعامه، وجد الخادمة تمسح الأرضية، فلم يبالِ بها وداس على الأرض بحذائه المليء بالتراب لينتشر الطين على الأرضية من جديد.

لم تتجرأ الخادمة على الاعتراض، وعادت ونظّفَت بصمت.

بعد ساعات وصلت ماري إلى البيت، توجهت نحو غرفته، رأته مستلقيًا على فراشه ينظر نحو السقف بلا حراك.

-ماذا هناك جورج، هل حدث معك أمر يقلقك؟

-أهلًا أمي، لا شيء يقلقني أبدًا، بعض المشكلات الدراسية لا أكثر.

-سيأتي أبوك بعد قليل، تعامل معه بهدوء كما اتفقنا، لا أريد مشكلات أكثر بعد اليوم، أخاف أن أفقدك كما فقدت ولدي من قبل.

-وكيف سأحتمل رجلًا لا يكاد يصحو من سُكره؟ ينتقدني بكل شيء ، لا تأكل هكذا ، لا تجلس هكذا ، لا تسعل هكذا ، إلى متى عليّ أن أحتمله؟

-لو زادت حدة المشكلات بينكما سيتمّ إرسالك لعائلة جديدة تهتم بك ، هل تحب هذا؟

-وليكن!! عسى أن أنتهي من الحياة مع هذا الرجل المجنون!

نظرت إليه ماري بحزن ، وانصرفت إلى غرفتها.

كانت ماري قد أنجبت ولدًا في بداية زواجها ، وبعد أن بلغ السادسة عشرة ترك المنزل بعد أن حصلت بينه وبين أبيه الكثير من المشكلات ، ولم تعد تتمتّع بقربه إلى اليوم ، ربما اتصل بها أو زارها في عيد الأم كل سنتين أو ثلاث مرة واحدة!

كان جورج يقضي أغلب وقته بين المدرسة والنادي الرياضي التابع للجيش ، يجلس في البيت ساعات قليلة يقضيها في غرفته غائبًا في عالم الإنترنت والألعاب الإلكترونية ، لا يرى مربّيته «ماري» إلا قليلًا ، فهي موظفة في إحدى الشركات الضخمة وتعود للبيت قبل مغيب الشمس ، ويتحاشى أن يلتقي بمربّيه «مارك» لأنه يعلم أن كل لقاء بينهما يعني شجارًا جديدًا.

لم يبقَ له إلا سنة واحدة ليلتحق بالكلية العسكرية كما خطّطوا له ، كان ينتظر تلك اللحظة بشوق ، طالما تعلم في النادي الذي يذهب إليه بعد المدرسة الكثير من معاني القوة والصلابة والشدة ، وعزّزوا في نفسه الإخلاص للدولة التي منحته الاهتمام والرعاية -كما يدّعون- ، والتحاقه بالكلية العسكرية يعني بالنسبة له الوصول إلى هدف عظيم رسموه في مخيلته ، فأصبح شغفه ومحل اهتمامه.



لكن شيئًا ما فتح في عقله نوافذ نحو الماضي ، ذلك الماضي الذي كان يحاول جاهدًا أن ينساه ، أن ينسى أنه طفل تم اقتلاعه من أرضه رغمًا عنه ، وغرسه في تربة غريبة لينمو بالشكل الذي يريدون ، لم يكن لديه حل إلا أن يعتاد الواقع الذي فُرِض عليه ، واقع ليس بذلك السوء كما يراه جورج ، فالحرية هنا مطلقة ولا ضوابط دينية ولا أخلاقية تمنعه من فعل أي شيء ، لكن ذلك العجوز بائع الجوارب هزّ أعماقه بشدّة.

حاول أن ينسى كلماته تلك ، فتح جهازه ليدخل عالم «الأحلام Dreams» الافتراضي كما اعتاد وقت فراغه ، ليقضي بعض الوقت مع أصدقائه..

لاحظ وجود طلب صداقة جديد على هذا الموقع ، وافق دون أن يهتم بمعرفة صاحبة الحساب.

وصلته رسالة من صاحبة الحساب تقول فيها:

- مرحبًا ، أنا عائشة ، هل تود أن تزور عالمي في (Dreams)

-عائشة؟!

اسم لم يسمع به منذ سنوات عشر ، هو جزء من هويته السابقة التي قد تركها خلف ظهره منذ وقت طويل.

تردّد في قبول طلبها ، فهي امرأة كبيرة كما يبدو من ملفها الشخصي ، ولن يكون عالمها مليئًا بالحماس والمغامرات كما يحب الفتيان في مثل سنه ، ماذا عساه يجد في عالم امرأة في عمر أمه؟



كتب لها قائلاً:

- وهل أجد في عالمك شيئًا أكثر من مطبخ مليء بالخضار وركن لأدوات التجميل، ووسادة للنوم؟ أظن أنك تبحثين عن شخص آخر يختلف عن فتى يعشق التحدّيات والمغامرات!

-من يعشق المغامرات عليه أن يجرب عوالم تختلف عن تلك التي اعتاد عليها، ألا تعتقد هذا؟ ربما ستجد في عالمي ما يميزه عن أي عالم آخر!

-لا أظن أن اهتماماتك تناسبني، لكن لا بأس في تجربة لحظات في عالمك، فأنا أبحث عمن أقضي معه بعض الوقت لا أكثر.

وضع النظارة الضخمة على وجهه ودخل عالم «الأحلام»

في هذا العالم على شبكة الإنترنت يمكن لأي شخص صناعة واقعه الافتراضي بنفسه، ويتيح له التحكم بصفاته وألوانه ومعالمه المختلفة، ويسمح له بالتحرك فيه وعيش بعض المغامرات.



التقى جورج عائشة في عالمها الخاص ، كانت عائشة حسب ما يبدو من شخصيتها الافتراضية امرأة في الخمسين من عمرها ، ترتدي حجابًا يشبه ذلك الذي كانت ترتديه أمه ، وثوبًا طويلًا واسعًا ، كان عالمها عبارة عن مزرعة صغيرة ، صمَّمت فيها بيتًا ريفيًّا جميلًا ، في أحد أركانه تنور خبز ، وفي زاوية بعيدة من المزرعة حظيرة أبقار.

-أهلًا بك جورج ، ما رأيك بمزرعتي؟

-جميلة جدًا ، كم أتمنى العيش في مزرعة مشابهة.

-يمكنك زيارتي هنا في أي وقت.

-من أي بلد أنت يا عائشة؟

-من دولة بحر.

-ماذا؟

-نعم ، هل هذه أول مرة تتعرف فيها على أصدقاء من دولة بحر؟

-أعرف بعض الناس هناك ، لكنهم صاروا جزءًا من الماضي ولا أريد أن أتذكر عنهم شيئًا.

-لا بأس ، ما رأيك أن نقوم ببعض الأنشطة هنا؟

انظر ، عندي فسيلة لشجرة أُتْرُج أود زراعتها ، هل يمكنك مشاركتي؟

-شجرة أترج؟!

تلعثم جورج قليلًا ، لكنه وافق على طلبها.

توجه جورج وعائشة في ذلك العالم الافتراضي إلى مكان ترابي ، وبدأ بالحفر وزراعة الشتلة ، أمسك إبريقًا أحمر اللون وبدأ برش الماء على فسيلته ، فسمع عائشة تقول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ))

رمى الإبريق من يده ووقف ينظر إليها ، كان يسمع هذا الحديث من أمه مرارًا كلما جلس معها تحت شجرة الأترجّ في بيتهم في السابق ، سمعه منها كثيرًا لدرجة أنه لا يزال يحفظه!



لم تكن صورة عائشة في عالم الأحلام تساعده على معرفة هويتها الحقيقة ، كان يريد أن يسألها ألف سؤال ، ويعرف من هي؟ ولماذا اختارت هذه المزرعة في عالمها؟ ولماذا شجرة أترج بالذات؟ ولماذا هذا الحديث؟

قاطعت عائشة سلسلة أفكاره وبادرته بسؤال

-هل سمعت هذا الحديث من قبل؟

-نعم.

-هل تعرف معناه؟

-لا

-يشبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن الذي يقرأ القرآن الكريم ويتدبر آياته ويلتزم بما أمره الله فيه ، وينفع بعمله الصالح عباد الله ، بأنه مثل ثمرة الأترج ، وهي ثمرة يسميها البعض «الكَبَّاد» ، طعمها طيب ، ولونها جذاب جميل ، ورائحتها زكية تشرح النفوس.

عندما تمرّ قرب شجرة أترج فإن رائحتها العطرة تجذبك رغمًا عنك ، تمسك ثمرتها وتشتمّها بعمق ليملأ أريجها كل ذرة من كيانك ، وتمتع ناظريك بلونها الجميل قبل أن تتلذذ بطعمها ، هكذا المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل بما فيه ، يجذب الناس إليه بسماحة خلقه وحسن معاملته وطيب معشره ، لا يرى الناس منه إلا خيرًا ، ولا يسمعون منه إلا خيرًا ، يحبه الله تعالى لإيمانه القوي وصدقه وإخلاصه والتزامه ، ويكتب له القبول بين الناس.

-توقفي ، يكفي هذا!

-ما الأمر يا جورج؟

-لا شيء ، مضطر للمغادرة!



-هل سببت لك إزعاجًا؟

-لا ، لكني لست على ما يرام ، أريد أن أنام قليلًا.

-حسنًا.. لا بأس ، سأكون في عالمي هنا غدًا في مثل هذا الوقت ، وتسرني زيارتك مرة أخرى.. مع السلامة.

أزاح جورج النظارة عن وجهه وقام من مكانه ، فتح النافذة ليستنشق بعض الهواء النقيّ بعد أن ضاق صدره ، عاصفة من المشاعر كانت تجتاح كيانه وتفتق جراحًا لم تندمل -بعض الشيء- إلا بعد أن تعب في محاربة ذاته والتنكر لقناعاته وإطفاء كل شعلة نور تحاول أن تضيء في قلبه فتفضح ما فيه من أفكار وصراعات وأوجاع وآلام.

لم يكن الحديث حول القرآن وشجرة الأترج بهذه البساطة ، لا يودّ أن يتذكّر المواقف التي سخر فيها مارك من المسلمين كلما سنحت له الفرصة ، خاصّة عندما رآه مرة يتأمل صورة مسجد في شاشة التلفاز ، فأشبعه سخرية وهمزًا ولمزًا حتى دفعه إلى أن يتنكّر لهويته ويتبرّأ أمامه من انتمائه لأمة الإسلام ، ليُخرِج نفسه من دائرة التهمة ويزيح عنها ذلك العار الذي رسمه مارك في مخيّلته ، لا يودّ أن يُصغي إلى نداءٍ هناك في أعماق قلبه يذكّره بأن حياته حياة سوء ، وأن نورًا قد انطفأ في قلبه بسوط السخرية تارة ، أو الإجبار تارة ، فالحديث حول ماضيه ودينه وعائلته السابقة ممنوع تحت أي ظرف كان.

لا يودّ أن يتذكر التناقض بين ادعاءات مارك حول الإسلام ، والواقع الذي كان يعيشه في الماضي ، فذلك السلام النفسي الذي كانت تتمتّع

به أمه رغم شظف العيش هو الحلم الذي أفنت ماري حياتها في سبيل الوصول إليه ، لكنها تعلن عجزها كل مرة تستسلم فيها لنوبة بكاء ، ذلك الحب الذي كان يحفّه به أبوه ، ويراه من الأقارب والجيران ، وإمام المسجد ، وأخيه حسين ، لا يشبه ذلك النموذج السيء الذي يلصقه مارك بكل مسلم ، فدفء العلاقات في قريته أجمل من كل هذه الرسميات الجافّة التي يعيشها هنا.

ليس في مزاج يسمح له بأن يفتح حقيبة أوجاعه من جديد ، فقد أغلقها منذ زمن ، ولا شك أن فتحها الآن سيكلفه الكثير من التخبط والضياع.

في اليوم التالي جلس على جهاز الحاسوب بعد أن أقنع نفسه ألف مرة بأهمية الابتعاد عن عائشة ، وأعطى نفسه العهود والمواثيق بأن يرحمها من إقحامها مجددًا في كوابيس الذكريات ، فتح بعض الألعاب وحاول أن يغرق فيها كما اعتاد في السابق ، لَعِبَ ، ولَعِبَ ، ولَعِبَ.. لكن قوة في داخله دفعته لأن يرتدي نظارة عالم الأحلام عندما حان الموعد ، وداس على كل تلك العهود التي قطعها لنفسه ودخل عالم عائشة مرة أخرى!

-مرحبًا عائشة

-أهلًا بك ، يبدو أن عالمي فيه من المغامرات ما دفعك لتعود إليه ، عكس ما كنتَ تتوقع!

-نعم ، فلا ركن طبخ هنا ولا أدوات تجميل.

-ولا سباق سيارات كذلك! ولا معركة بين محاربين أشداء! ما الذي أعجبك في عالمي حتى عدت لزيارتي؟

-شجرة الأترج.

-شجرة الأترج؟ هل سبق لك أن رأيت هذه الشجرة؟

-نعم ، كانت هناك شجرة أترج كبيرة في بيتنا في القرية ، ولا زالت صورتها ورائحتها ترافقني حتى اليوم ، لا يمكن أن أنساها أبدًا.

-وهل سبق أن رأيت قارئ قرآن يجذب الناس حوله كأترجّة عطرة؟

-في هذا البلد يمكنك أن تسأليني عن محترفي غناء ورقص.. كرة قدم.. مصارعة.. طبخ.. بل حتى عشاق فلسفة أو رياضيات ، أما قرّاء قرآن؟!! لا يوجد قرّاء بين معارفي هنا!

-فاتك الكثير من الجمال إذن ، ليتك سمعت صوت فتى اسمه حسين في إحدى قرى دولتنا ، دولة بحر ، كان صوته في قراءة القرآن عذبًا جميلًا ، يصطفّ الناس خلفه في رمضان لصلاة التراويح رغم صغر سنه ، يستمعون تلاوته خاشعين لجمال صوته وحسن أدائه ، وما زاده قيمة بين الناس حُسنُ خلقه وطيب معاملته والتزامه بتعاليم دينه.

-من هو حسين هذا؟ من أي قرية هو؟ ما اسم أبيه؟

-لماذا تسأل عن تفاصيل جانبية لا تثري موضوعنا ، فليس من الضروري أن نعرف اسم أبيه ولا اسم جده ، حديثنا عن خُلقه النبيل وعمله الصالح

-أرجوك عائشة ، حدثيني عنه أكثر فالأمر فعلًا يهمني!

-دعك منه الآن ، يُذَكّرني حسين هذا بقصة الصحابي الجليل «سالم مولى أبي حذيفة» رضي اللّه عنه ، كان يحفظ القرآن الكريم كلّه في قلبه ، فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الصحابة أن يتعلموا منه كتاب اللّه ، لشدة إتقانه وجمال أدائه.

من أهم ما يميّز سالمًا رضي اللّه عنه أنه لم يجعل من القرآن الكريم



كلمات محفوظة في صدره فقط ، ولا ترانيم تطرب بها روحه ، بل كان القرآن الكريم خُلُقه وأسلوب حياته ، يتدبّر آياته ويطيع أمر ربه فيه ، كثير العبادة ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ينادي الصحابة الكرام في معركة اليمامة بأعلى صوته (يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفِعَال) ، وكان يقول وهو يرفع راية المسلمين بقوة وصلابة وعزة: (بئس حَاملُ القرآن أنا ، إن أُتيتم من قبلي).



-ماذا يقصد بقوله هذا؟

-يقصد بأنه لن يسمح بدخول العدو إلى قلب الجيش المسلم من الثغر الذي يقف عليه ، فلا يليق الجبن والضعف والفرار بقارئ القرآن ، كيف ذلك والقرآن يأمره بالثبات وعدم الفرار أمام العدو ، وبقي ثابتًا صابرًا رغم شدة المعركة حتى نال الشهادة في سبيل الله في قصة رائعة مليئة بالعبر.

-سالم مولى أبي حذيفة كان يحفظ القرآن كما تقولين ، بينما لست كذلك ، فهل أنا محاسب على طاعة الله في أوامره التي وردت في القرآن ولا علم لي بها؟

-القرآن الكريم رسالة ملك الملوك إليك ، رسالة ربك خالقك ورازقك ومدبر أمرك ، رسالة ممن تفيض إليه روحك عند موتك فيحاسبك على عملك ، رسالة ملك يوم الدين الذي ستقف بضعفك بين يديه تقرأ صحيفة أعمالك بسعادة أو حزن ، وتنتظر حكمه فيك ، فإما جنة أبدًا وإما جحيم أبدًا ، فكيف لنا ألّا نهتم بما فيها وبها تتعلق مصائرنا الأبدية؟

-انظري لحالي هنا ، أعيش في غربة منذ طفولتي ، لا أحد يذكّرني بآية من القرآن ، ولا صوت أذان يذكّرني بالإسلام.

بعد وصولي إلى أرضِ الصخور ، حاولت أن أصلي وأقرأ القرآن كما علمَتْني أمي لكنني كنت أُقابَل بالسخرية والاستهزاء ، أما إن جلست ألهو وألعب وأرتكب المعاصي على اختلافها فإنهم يشجّعونني ويصفقون لي ويعدّون هذا حرية شخصية أو إبداعًا أو موهبة أو غير ذلك ، فنسيتُ كتاب



الله ونسيتُ الصلاة واعتدت حياة الغفلة واللهو والمعاصي حتى صارت جزءًا من حياتي.

-وهل تشعر بالسعادة في أسلوب حياتك هذا؟

-ربما ، أقصد نعم.. أنا بخير.

-لا أظن ذلك.

-وهل أنت أعلم بما في داخلي مني؟

-أنا لا أعلم بما في داخلك ، لكني قرأت في القرآن أن حياة كحياتك لا تمنح صاحبها السعادة والرضا ، ولا الأمان النفسي المطلوب ليعيش حياته باتزان.

كان الصمت هو الرد الوحيد الذي يملكه جورج تلك اللحظة ، فالغصة في قلبه أكبر من أن يتمكن من تجاهلها ليستمر في سرد ادعاءاته بسهولة.

-جورج ، أين سرح بك تفكيرك؟

-أنا هنا ، أحاول أن أجد طريقة أستمر فيها بالكذب..

-تكذب عليّ؟

-بل أكذب على نفسي.

ما قرأتِه أعيشُه حرفيًّا يا عائشة ، أنا أسمع مرارًا موسيقى صاخبة لأملأ الفراغ الروحي في داخلي ، أدخن السجائر ، أمارس اليوغا ، أذهب للملاهي ، أنام أمام التلفاز وأنا أتابع الأفلام وأصحو على ألعاب الفيديو ، كل هذه كانت محاولات بائسة لأملأ الفراغ داخلي ، كلها محاولات لأتذوق السعادة ، لكنها كانت مجرد مسكّنات خالية من أي علاج حقيقي لقلبي ، بل تضر أكثر مما تنفع ، فما إن أصحو من غفلتي حتى يضيق صدري

وتختنق أنفاسي وأبحث لي عن لهو آخر أنغمس فيه باحثًا عن السعادة ، كمن يشرب من ماء البحر لا يزيده إلا عطشًا ، أخشى أن أواجه نفسي بشجاعة وأفكر للحظة في طريقي في هذه الحياة ، أخاف أن أسأل نفسي «هل ما أفعله صحيح؟ هل يحبني اللّه؟ هل سأكون بخير لو حانت لحظة موتي؟»

الشيء الوحيد الذي يريحني بعض الشيء أنني كلما أغمضت عيني على وسادتي تداهمني صورة أمي وهي تسألني (هل قرأت الفاتحة اليوم؟) فأتلوها مسرعًا لأبقى على رابط يصلني مع اللّه.

-آه يا صديقي ، ما أثقل غربة الدين ، أن تشعر بأنك تحتاج العودة لدينك لكن لا أحد يأخذ بيدك ، لا أحد يشجعك ، بل يسخرون منك ليصرفوك عن قرارك ، لكن لا تنسَ أن اللّه تبارك وتعالى هو الذي يقول: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}.

عندما يكون اللّه معك فمن أقوى منك؟ ومن أسعد منك؟ ومن أكثر توفيقًا وصلاحًا منك؟ فاستعن باللّه واسأله الهداية والتوفيق

– وكيف لي أن أفهم كتاب اللّه وحدي؟

– كلمات القرآن الكريم أغلبها سهلة يسيرة الفهم لمن أتقن العربية ، وليس أسهل من تحميل تطبيق لتفسير القرآن اليوم على جهازك الجوال ، أليس كذلك؟

-بلى ، سأقوم بتحميل تطبيق لتفسير القرآن إن شاء اللّه ، لكن إياكِ أن تنسَي أمر حسين ، أنا أنتظر ردك على أحرّ من الجمر.

-غريب اهتمامك! لماذا تحرص على معرفة تفاصيل أكثر حوله؟



تلعثم جورج قليلًا ، ثم أردف قائلًا :

-لا شيء مهم ، أود متابعته على مواقع التواصل الاجتماعي لأتعلّم منه القرآن ، وربما تواصلت معه لأرى إمكانية استضافته هنا في أرض الصخور ليُعلّم هذه القلّة من المسلمين قراءة القرآن.

-فكرة ممتازة فأنتم بحاجة لمن ينشر نور الإسلام في دياركم ، هل تعلم؟ سمعت عن قصة في دولة صخر أن فتى في مثل سنك دفع رجلًا عجوزًا يمشي على ساق خشبية أرضًا ، فقط لأنه كان يرجوه أن يشتري منه زوجين من الجوارب!

المسكين ما أحوجه لهدي الإسلام ، ليتني أستطيع إهداءه نسخة من القرآن الكريم وتفسيره ، ليعرف الرحمة في أسمى معانيها ، هداه الله.

صمت جورج بخجل..

أرغم نفسه على التماسك ليسألها والغصة تخنقه.

-من أنت يا عائشة؟ أريد أن أتصل بك خارج هذا العالم لأتعرف عليك أكثر

-اعذرني لا وقت لدي ، عليّ أن أخرج الآن ، ربما نلتقي لاحقًا لنجعل هذه المزرعة أجمل ، مع السلامة.

خرجت عائشة من عالمها الافتراضي وتركت جورج يعيش صراعًا في داخله أدخله في متاهات لا آخر لها.

أزاح نظارة عالم الأحلام الضخمة عن وجهه ورماها أرضًا وانصرف إلى فراشه وفي رأسه ألف فكرة تداهم عقله.



تذكّر ذلك العجوز في الشارع، وحاول أن يربط الأحداث ببعضها.

«هل لذلك العجوز علاقة بعائشة، أم أن اجتماع هذه الأحداث مجرد مصادفة لا أكثر؟»

بقي في فراشه يتقلّب إلى وقت متأخر جدًا.

تذكّر القرآن الذي حدثته عنه عائشة، وتذكّر الفاتحة، كان يردّدها دائمًا في لحظات الخوف والرعب التي يحتاج فيها العون والمدد من الله، أو في لحظات شعوره بالوحدة والغربة، فقد كانت الفاتحة تشعره بالأمان والأنس والطمأنينة.

طالما حدثته ماري أن له حرية اختيار دينه، لكنها في الوقت نفسه أقنعته أن الإسلام دين القسوة والعنف والتخلّف الحضاري، وشاهد معها عدة مقاطع فيديو تثبت ذلك حسب ادعاءاتهم!

لكن كلام عائشة دفعه ليعيد تفكيره من جديد، فتح هاتفه المحمول، بحث فيه عن سورة الفاتحة، وجلس يستمع لكلماتها بهدوء واهتمام وتركيز



{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾}

ما أجملها من كلمات ، شعر بالسكينة تملأ قلبه من جديد ، تذكّر أيام طفولته المبكرة حين كان يسمعها عندما يقف خلف أبيه في الصلاة ، أو خلف أخيه حسين ، كان صوت حسين جميلًا جدًا في قراءة القرآن ، بدأت دموعه تنهمر على وجهه رغمًا عنه ، سمح لنفسه أن يستسلم للبكاء هذه المرة ، بكى بشدة.. بكى عن كل تلك السنوات التي أُجْبِرَ فيها على البعد عن بلده وقريته ، بكى قهرًا من أولئك الذين قتلوا والديه ، بكى حزنًا لفراق حسين ، بكى لبعده طول تلك السنوات عن القرآن ، وعن سورة الفاتحة..

★★★★★★



الفصل الثالث



استيقظ في اليوم التالي وحمل حقيبته ليتوجه إلى المدرسة ، صادف ماري أمام الباب تتجهّز لتذهب إلى عملها.

-صباح الخير جورج ، كيف حالك اليوم.

-بخير ، سأتأخّر اليوم في عودتي إلى البيت ، لا تقلقي عليّ.

-لماذا؟ أين ستذهب؟

-عندي موعد.

كانت ماري ترى في وجه جورج ملامح الحزن والإرهاق ، لكنها لم تهتم كثيرًا ، فالشباب في هذا السن يتعرّضون للكثير من التقلبات المزاجية ، وغالبًا سيعود إلى طبيعته قريبًا ، هكذا كانت تظن.

-انتظر يا جورج

ناداه «مارك» من الطابق العلويّ

-ماذا هناك يا أبي؟

-صدر قرار يخصك بالأمس ، ستلتحقون بالسكن العسكري بعد شهرين

-ولماذا؟ من المفترض أن يتم هذا بعد عام كامل؟

سألت ماري بحزن

-قرار من الجهات العليا لا شأن لنا به ، وأنا أرى أن جورج أصبح فتىً قويًّا قادرًا على الاعتماد على نفسه بعيدًا عنا ، وسيكمل هناك دراسته الثانوية قبل أن يلتحق بالكلية العسكرية ، تلك اللحظة التي كان ينتظرها

بفارغ الصبر ، أليس كذلك يا جورج؟

-بلى.. ربما

-وستبدأ بممارسة تدريبات متقدمة كقيادة الدبابات والمروحيات إضافة إلى مهمات ميدانية خارج النادي العسكري ، كن جاهزًا لذلك.

-هل هناك حرب قريبة يحتاجون فيها عددًا أكبر من الجنود المؤهلين؟

-ربما.

-ماذا لو غيرت رأيي؟ لا أريد الالتحاق بالسلك العسكري.

-ماذا؟ وما الذي تريد أن تفعله في حياتك إذن؟

-أريد أن أكمل دراستي وأدرس في مجال آخر ، الطب أو الهندسة أو غير ذلك

-لم تنفق عليك وزارة الدفاع طول هذه السنوات لتكون طبيبًا ولا مهندسًا ، بل لتكون ضابطًا محترمًا مثلي في جيشها العظيم..

-أليس من حقي تقرير مصيري؟

-جملة كهذه تضعك في السجن ، إياك أن تتفوّه بها أمام أحد إن كنت تريد سلامتك.

خرج جورج من البيت والغصة في حلقه تخنقه.

انتهى الدوام الدراسي ، وتوجه إلى المكان الذي التقى فيه بالعجوز ذي الساق الخشبية ، وقف طويلًا طويلًا ، لكنه لم يجده ، تكرّر هذا لعدة أيام ، كان يتعمّد أن يمرّ من هذا الطريق باحثًا في كل زاوية ومنعطف علّه يراه ، لكن دون جدوى.

هناك في النادي العسكري بعد دوامه المدرسي ، وقف جورج في الساحة

يستمع كلام الضابط حول التعليمات الجديدة:

-أيها الفتيان ، ستلتحقون بالسكن العسكري في نهاية الشهر ، فالجيش هو عائلتكم وشرفكم وموطنكم وكل حياتكم ، الجيش الذي أعطاكم فرصة لتعيشوا بكرامة في هذا الوطن ، الجيش الذي سيجعل منكم رجالًا تقودون العالم ، وستمنحونه بدوركم إخلاصكم وولاءكم وجهدكم.

ستخرجون كل يوم لتدريبات ميدانية في شوارع المدينة ، ستكون مهمتكم هي القبض على المتسولين ، والباعة الجوالين الذين يعملون دون ترخيص حكومي لمزاولة عملهم ، اقبضوا عليهم لنضعهم في السجن إلى أن يتعلموا احترام القانون ، ستستمر المهمة لأسبوع كامل ، هيا انطلقوا.

خرج الفتيان الذين خُطِفوا يومًا من أرضهم وأحضان أهلهم ليتدرّبوا على خطف الأبرياء من الفقراء والمعدَمين ، ليكونوا جنودَ شَرٍّ لجيش أرض الصخور ، عديمي الضمير والرحمة والشفقة.

-هيا بنا نبحث عن بائع جوال تعِس سيّئ الحظ ، ليعلم جيدًا معنى مخالفة القانون.

صاح أحد رفاقه بكبر متبخترًا أمام الفريق

سار الفريق باحثًا عن ضحايا في كل زاوية ، أخذوا طفلًا يمسح الأحذية من هذا الشارع ، وامرأة تبيع قفازات وقبّعات صوفية حاكتها لتكسب رزقها من شارع آخر ، طردوا فتاة صغيرة تبيع أكواز الذرة بعد أن أخذوا منها بضاعتها وتمتعوا بأكلها وهي تنظر وتبكي ، كانت تلك الأكواز كل ما تملك ، تبيعها لتشتري خبزًا ربما ، دواء ربما ، أو كراسًا وأقلام

رصاص ، لكن أحلامها البسيطة اصطدمت بواقع مرّ ، كان جورج ينظر لرفاقه ويتذكر كلمات عائشة (ما أحوَجهم لهدي الإسلام) فيطرق رأسه خجِلًا ويمضي خلف رفاقه بصمت.

إلى أن ظهر في آخر الشارع بائع الجوارب ذو الساق الخشبية يمشي ببطء متكئًا على عكازته ، وقبله بأمتار بائع آخر يضع برتقالًا للبيع على عربة صغيرة

-انظروا هناك ، فريستان في وقت واحد!

صاح قائد الفريق ، ليبادر جورج بطرح فكرة خطرت على باله في لحظة:

-انطلقوا أنتم إلى بائع الجوارب ودعوا لي بائع البرتقال.

ركض الجميع إلى العجوز بائع الجوارب ، في حين ركض جورج إلى بائع البرتقال الأقرب إليه ، همس في أذنه:

-اهرب بسرعة

أمسك جورج بعربة البرتقال ودفعها وسط الشارع ، لتصطدم بالرصيف المقابل وتنقلب على الأرض مسببة قطع الطريق.

كان صوت ارتطام العربة وصوت فرامل السيارات الشديد كفيلًا بأن يوقف الفتيان عن ملاحقة العجوز ، ليلتفتوا خلفهم وينظروا ما الذي حدث!

عادوا إلى جورج مسرعين

-ماذا حصل يا جورج؟

-ذلك البائع المتهور ، دفع العربة للشارع وفرّ هاربًا

خلال تلك اللحظات اختفى العجوز عن الأنظار ، هذا بالضبط ما كان يريده جورج.

-هيا ابحثوا في كل مكان عن العجوز بائع الجوارب وبائع البرتقال الهارب

صرخ بهم قائد الفريق فانتشر الفتيان في كل مكان باحثين ، لكن دون جدوى

«سألتقيك يومًا ما أيها العجوز ، وسأعرف كل أسرارك»

هكذا كان يقول جورج في نفسه وعينه تراقب العجوز من بعيد وهو يختفي بين الأحراش المؤدية إلى الجبل ، وقف العجوز والتفت للخلف ، حدّق للحظات في عينيه ، ابتسم ابتسامة صغيرة تحمل ألف معنى ، ومضى.

عاد جورج إلى بيته وجلس منتظرًا دخول عائشة لكنها لم تفعل ، كان ينتظرها كل يوم ليعرف عنها المزيد ، هو يعلم يقينًا أن دخولها في حياته ليس مجرد مصادفة ، ولا بد أن يكتشف يومًا ما حقيقتها هي الأخرى.

بدأ يبحث أكثر عن دينه.. الإسلام ، ألزم نفسه بقراءة صفحات قليلة من القرآن كل يوم ، وتفسير آية أو اثنتين ، استمع لبعض المحاضرات عن قيم الإسلام وعدالته ، قرأ بعض أحداث السيرة النبوية ، وبعض قصص



الصحابة الكرام ، لكن ألف سؤال لا زال هناك على قائمة البحث ينتظر جوابًا شافيًا.

قرأ حول الحرب الأخيرة بين أرض الصخور ودولة بحر ، أسبابها ، ونتائجها ، والمجازر التي حصلت فيها ، والأكاذيب التي تمّ تلفيقها حولها.. قرأ بنَهَم.. قَرَأ بألَم.. قرأ بكُرهٍ وحقدٍ على الظلم وأهله.. قرأ عن آلاف القتلى والمهجّرين ، عن بلاد دُمرت لطمع جيرانها بها ، وبغضهم لأهلها وإسلامهم ، قرأ عن أطفال بلا آباء ، فتيان بلا عيون ، وفتيات بلا أيدٍ.. بلا أقدام ، قرأ عن أنامل لم تعرف يومًا -لبؤس أصحابها- كيف تمسك الأقلام..

لم يكن هو الضحية الوحيدة في هذه الحرب ، لكنه بلا شك.. كان يمثل أحد أشكال مآسيها.

كان يغرق كل يوم لساعات في عالم البحث عن الحقيقة ، وكم كانت سعادته كبيرة بعد أيام ، عندما وصلته أثناء بحثه رسالة من عائشة فلم يتأخر لحظة في الرد عليها:

-السلام عليكم ، كيف حالك جورج ، أتوقع أن شجرة الأترج قد كبرت في مزرعتي ، ما رأيك أن نأخذ جولة فيها؟

-وعليك السلام ، انتظرتك لعدة أيام لكنك تأخرت عليّ.. نعم أودّ أن نزور مزرعتك وأطّلع على بقية تفاصيلها!

-أسعدني اهتمامك ، هيا بنا.

وضع جورج نظارة عالم «الأحلام» على وجهه وبدأ بالرحلة الافتراضية.

-انظر ، كبرت شجرتنا!

-نعم تبدو جميلة ، لو كانت الدنيا في حقيقتها تشبه هذا العالم الافتراضي لحُلّت الكثير من المشكلات بضغطة زرّ!

-الحقّ معك ، بعض المشكلات الصعبة نتمنى أن نخرج منها بضغطة زرّ فعلًا ، لكن الدنيا دار ابتلاء وعمل واجتهاد ، تحتاج فيها أن تكون حكيمًا بما يكفي لتحسن التصرف واتخاذ القرار ، قويًّا بما يكفي لتتجاوز تحدياتها ، صبورًا بما يكفي لتصل إلى هدفك.

-وكيف لفتى مثلي أن يملك كل تلك الحكمة والقوة والصبر.

-كلنا بشر ضعفاء يا جورج ، لكن هناك فرق بين من يواجه الدنيا بضعفه البشري ، وبين من يمضي في حياته متوكلًا على الله القوي المتين ، كيف لا يطمئن من يستعين بالله الذي بيده الأمر كله؟

انظر هنا أسفل هذه الشجرة ، خرج دود الربيع الملون الجميل!

هيا لنجمع بعضًا منها في هذه العلبة ، ضع واحدة على يدك وحاول أن تشعر بوبرها الجميل وهو يدغدغ كفك.

لم يكن يصعب على جورج أن يعيش ذلك الشعور رغم أنه الآن يعيش في عالم افتراضي ، لكن هذا الموقف أيضًا جزء جميل لا ينساه من ماضيه.

-يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام (الرَّاحِمونَ يرحَمُهم الرَّحمنُ تبارَك وتعالى؛ ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكم مَن في السَّماءِ) ، أمسكها برفق حتى لا تؤذيها.



-الرحمن الرحيم من أسماء الله عز وجلّ ، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالرحمة ، فلماذا يتحدث الناس عن الإسلام على أنه دين بعيد كل البعد عن الرحمة؟ دين تشدد وقسوة وعنف؟

-الرحمة من أهم القيم في ديننا ، فمن رحمة الله أن أمرنا بالتوحيد لنعبده وحده وننصرف عن عبادة كل من لا يستحق العبادة ، ومن رحمته أن أمرنا بالعبادة لنتقرب منه.

-وكيف تكون العبادة رحمة لنا؟
-أليس من الرحمة أن تدلّ طفلًا إلى بيته الآمن الدافئ إن وجدته تائهًا في ليلة باردة مثلجة؟ هكذا عبادة الله رحمة لنا ، عندما نلجأ إليه باحثين عن الأمان هربًا من شدة الحياة وقسوتها ، وفيها رحمة لنا عندما يغفر الله ذنوبنا ويرفع درجاتنا لنفوز بجنات النعيم.
ومن رحمته أيضًا أن حرّم علينا البغي والظلم والفواحش والمنكرات.
-هل ترك ما حرم الله رحمة لنا كذلك؟
-أليس من الرحمة أن تمنع طفلًا من تناول طعام فاسد حتى وإن كان يبدو شهيًّا وتاقت نفسه لتناوله؟ هكذا يرحمنا الله إذ ينهانا عن الظلم والسوء والفواحش والمنكرات حتى لو ظننا أن الخوض في هذه المنكرات سبب لذة وسعادة

ومن رحمته أن أمرنا بالقوة العلمية والتقنية لنبني أمتنا ، وأمرنا بالقوة البدنية والعسكرية لنحمي أنفسنا من بطش الظالمين ، ومن رحمته



أن أمرنا بصلة الرحم وبر الوالدين والإحسان إلى الناس وغير ذلك من تعاليم دينية لا يمكن أن تنفك الرحمة عنها بحال.

-لكن هذا عكس ما سمعته عن الإسلام في وسائل الإعلام!

-متى كانت آخر مرة قرأت فيها القرآن الكريم وتفسيره وسيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟

-لم أقرأ القرآن وتفسيره ولا السيرة النبوية منذ عشر سنوات تقريبًا ، لكني بدأت القراءة فعلًا بعد لقائنا الأول.

-جميل أنك بدأت من جديد ، الحمد لله ، لكن بُعدك أكثر من عشر سنوات عن القراءة حول دينك تجعلك تفتقد الكثير من المعلومات حوله ، فكيف تحكم على الدين الإسلامي بكل هذه الأحكام دون أن تطلع على حقيقته بنفسك من مصادره الصحيحة؟ هل يصح أن تأخذ صورة عنه من قِبَل أعدائه؟

تخيل لو كان لك عدوٌّ يكرهك ، هل ترضى أن يتولى مهمة الحديث عن شخصيتك وطباعك وأخلاقك بين الناس؟

-لا أرضى طبعًا!

-هكذا الإسلام ، إن أردت أن تعرفه فاقرأ عنه بنفسك من مصادر سليمة ، اقرأ القرآن الكريم وتفسيره ، والأحاديث والسيرة النبوية ، اقرأ واستمع لأهل العلم الثقات وتعلم منهم تعاليم دينك وتشريع ربك ، لتعلم أنه دين الجمال والأخلاق والقيم ، دين الرحمة والقوة ، والتواضع والعزة ، دين العلم والثقافة ، والنهضة والحضارة.

ستجد من يتهم الإسلام بالإرهاب، وظلم المرأة، وأذى الأطفال، ستجد من يقول إن الإسلام يحارب الحريات ويدعو للتشدد وترك الملذات، ستجد من يربط بين الإسلام والتخلف الحضاري، ويطالب بترك الالتزام بالتشريع الإسلامي كشرط للالتحاق بركب الحضارة، ستجد من يتهم الإسلام بألف تهمة وتهمة، وما عليك فعله أن تبحث عن الحق، وأن تتحرى الحقيقة من مصادرها الصحيحة، لا من وسائل الإعلام ذات التوجهات المخالفة للإسلام، ولا من غير المتخصصين الذين قد يؤدي جهلهم بالدين إلى نقل صورة مغلوطة عنه ولو بحسن نيّة منهم، بل تحرّي الحق في أقوال العلماء الثقات الذين شهدت لهم الأمة بالعدالة، وهم كُثر بلا شك، تمامًا كما تتحرى أن تذهب لطبيب متخصص لعلاج عينيك بدلًا من أن تطلب الدواء من البقّال!

- أتمنى أن أتعرّف على ديني على وجهه الصحيح ، أن أفهم تعاليمه وأمتلك من الإيمان واليقين ما يعينني على الامتثال لأمر اللّه دون أن أشعر بثقل ذلك!

-إنه العلم يا جورج ، فطاعة اللّه وخشيته بالغيب لا تتحقق إلا لمن عرف اللّه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وقرأ القرآن بتدبر ، وطاعة رسوله لا تتحقّق إلا لمن عرف سيرته وسنّته وأحبه أكثر من نفسه وماله وولده.

-أحبه أكثر من نفسي؟!

-نعم ، فمن يعرف الكثير عن رسول اللّه -عليه الصلاة والسلام- سيحبه أكثر من نفسه ، أما إن لم تعرف عنه شيئًا أو عرفت عنه معلومات خاطئة فكيف لك أن تحبه؟ كيف لك أن تطيع أوامره؟

هل جربت أن تحب أحد معلميك؟

-نعم ، كم أحب معلم الرياضيات رغم أني كنت في السابق أكره هذه المادة..

-كيف صار أداؤك فيها بعد أن أحببت المعلم؟

- تخيّلي ، لقد أحببت الرياضيات ، وصار أداء الواجبات أسهل ، وصرت أجد متعة في أدائها وأنا أتخيل عبارات الثناء التي سيعطيني إياها معلمي ، وأتخيّل ابتسامته وهو يطلع على جودة أدائي ، وأسعى بكل الطرق للتقرّب منه ليزيد حبه لي ، بينما يثقل علي أداء أي مهمة يكلفني بها معلم أكرهه أو لا أحمل تجاهه أي مشاعر.

-هذا بالضبط ما كان يحدث عند الصحابة الكرام ، فقد كان الحب في قلوبهم دافعًا كبيرًا لامتثالهم لأمر اللّه دون أن يشعروا بمشقة في ذلك. بل إنّ الامتثال لأمر اللّه يصبحُ أحبّ إلى الإنسان من أي شيء ، ويجد في طاعته من السعادة ما لا يجده ذاك الذي ينغمس بالمعاصي باحثًا عن

إشباع شهواته.

-حبّ اللّه وطاعته سعادة! أظنّ أن هذا النوع من السعادة هو ما أفتقده حقًا ، ربما عليّ أن أعيد التفكير في أسلوب حياتي من جديد ، رغم أن هذا سيسبب لي مشكلات من العيار الثقيل مع أمي وأبي ، لكن لا بأس ، الأمر يستحق بعض المجاهدة والصبر.

فجأة دخلت ماري لتسمع جملته الأخيرة ، لم ينتبه جورج لدخولها وهو غارق في عالم الأحلام وتلك النظارة الضخمة تغطي عينيه.

شعرت ماري بالصدمة ، وبقيت تلك الجملة تتردد في عقلها مرارًا:
«رغم أن هذا سيسبب لي مشكلات من العيار الثقيل مع أمي وأبي ، لكن لا بأس»

توجهت إلى جهاز الحاسوب وضغطت الزر لتطفئ الجهاز.
رفع جورج النظارة عن عينيه مستغربًا ليجد ماري تقف أمامه وتنظر إليه بغضب:

-أهلًا أمي ، منذ متى وأنت هنا؟
-منذ أن كنت تخطط لمشكلات من العيار الثقيل معنا!!
مع من كنت تتكلم؟
-مع صديقة لي في مثل سنك اسمها عائشة ، تعرفت عليها مؤخرًا ، كانت تحدثني عن الإسلام.
-عن الإسلام؟ ولماذا تريد أن تعرف عن الإسلام أكثر؟



هل أمرتك يومًا أن تغيّر دينك؟ ها أنت مسلم موحد وهذا يكفي ، ألا تعلم أن التعمق في الإسلام يجعل منك شخصًا قاسيًا متشددًا ظالمًا؟

أمسك جورج النظارة ورماها بقوة على الأرض ، ووقف على قدميه ينظر إليها وفي عينيه من معاني الحزن والانكسار والأسى الكثير:

–وهل هناك أكثر إرهابًا وظلمًا من أخذ طفل صغير من بيته بعد قتل أهله وتدمير بلده وإحضاره ليعيش مع عائلة لا يعرفها ، ليصبح ضابطًا في الجيش الذي تسبب في مأساته؟ لو أننا رفعنا لافتات الرحمة والإنسانية والسلام في كل شارع من شوارع مدينة الظلام هذه وتغنّينا بهذه الشعارات في كل محفل ومؤتمر ، هل يعيد هذا أرواح ملايين الأبرياء الذين ماتوا بأيدي جيشنا؟ هل سيعيد هذا ثرواتهم المنهوبة؟ بلادهم المدمرة؟ مجتمعاتهم المفككة؟ هل سيعيد هذا هويتهم التي نقوم بتشويهها بكل حيلة وطريقة؟

طرق.. طرق..طرق..طرق

صفق مارك بيديه عدة صفقات باردة بأسلوب ساخر بعد أن دفع باب الغرفة بقدمه ودخل

–هكذا إذن يا جورج ، كلماتك هذه لو وصلت إلى الجيش ستختفي خلف الشمس ، لن أنظر لدموع عينك وأنت تتوسّل أمامي تطلب الرحمة ، تذكر هذا جيّدًا

–أعرف هذا ، أعرف أنك تكرهني ، أعرف أنك مضطر للاحتفاظ بي في بيتك لأن هذا ما تمليه عليك مهمتك في الجيش ، أعرف أنني لم أكن يومًا ابنًا لك ، بل أنا ابن عدوك ، وسأبقى في نظرك كذلك.

خرج جورج من البيت ، وماري تنظر ، وتبكي.


الفصل الرابع



قضى جورج ليلته تلك يمشي في شوارع المدينة الهادئة، يفكر بحاله البائس وما يعيشه من حيرة وضياع

«إلى متى سأستمر في حياتي بهذا الشكل؟ متى سينتهي مسلسل التيه هذا؟ من هي عائشة؟ ما علاقتها بذلك العجوز، من هو، لقد رأيت التراب ينهال على وجه أبي عندما دفنوه بعد أن قضى شهيدًا، يستحيل أن يكون هو ذلك العجوز، مع أنه يشبهه بعض الشيء، فعيون العجوز تشبه عيون أبي، نظراته نفسها تمامًا.

لماذا عاد بالأمس ليقف قرب بيتنا، هل هو يتعمّد ذلك فعلًا؟ ماذا يريد مني وكيف له أن يردّد جملة لم أكن أسمعها إلا من أمي؟ ماذا عن حالي هنا؟ هل عليّ أن أعود إلى بلدي المدمر بعد أن صارت لي هنا حياتي الخاصة وأحلامي وطموحاتي وصداقاتي، كيف فتحوا عليّ باب ذكريات الماضي على مصراعيه بعد أن شددت عليه ألف قفل حتى نسيته فعلًا، وقبلت أن أكون فردًا من هذا البلد بعد أن تمتّعت بخيراته وجرّبت طعم الحياة فيه، نعم لم أكن سعيدًا تمامًا، وطالما كنت أشعر بالغربة رغم لطف ماري، وطالما أشعر بنظرات المجتمع نحوي وكأنني درجة ثانية، لكنني استطعت التأقلم وها أنا أعيش بشكل جيد، هل عليّ أن أقوم بحظر عائشة من مواقع التواصل، واعتقال ذلك العجوز ورميه في السجن لأرتاح من عبء الماضي من جديد؟ هل عليّ أن أتوقف عن طرح الأسئلة والبحث عن الحق؟ ألم أجد في النادي العسكري القوة والشدة والطريق إلى السلطة؟ هل علي فعلًا أن أقرأ أكثر حول الإسلام وتعاليمه وواجباتي فيه؟ ألا يكفي أن أكون مسلمًا موحدًا لأدخل الجنة؟ يا الله، أشعر بالضياع، كانت أمي

تدعوك دائمًا أن تحفظني وتهديني ، يارب استجب دعاءها.

جلس على كرسي في أحد الحدائق ، ونام من شدة التعب.

عاد جورج عند الفجر إلى بيته ، أخذ حقيبته المدرسية وخرج مباشرة إلى مدرسته ، ليذهب بعدها إلى النادي العسكري.

وهناك في النادي:

-سنكمل اليوم مهمتنا في ملاحقة المتسولين والباعة الجوالين ، وسيكون مع كل فرقة منكم سيارة وضابط ليكون لكم عونًا عند الضرورة ، هيا انطلقوا.

انتشر الفتيان في البلدة ، كل فريق إلى المكان المحدد له ، وبدأ فريق جورج بالتجوّل باحثًا عن ضحية يتدرب فيها على الاعتقال والظلم والأذى.

كان قلب جورج يرجو بشدة ألّا يصادف الفريق ذلك الرجل العجوز ، لكن.. حدث ما كان يخشاه.

لقد ظهر العجوز في آخر الشارع ، وها هو يتمايل على عكازه يمينًا وشمالًا ، يحمل مجموعة جوارب تهتز بيديه المرتجفتين ، ينادي بصوته المتهدج: جوارب.. اشتروا من عجوز فقير مسكين.

ملأت السعادة وجوه الفتيان في الفريق بعد أن وجدوا ضالتهم ، زاد الضابط سرعة السيارة ووقف أمام العجوز بعد أن داس الفرامل بقوة ليقذف الخوف في قلبه.

نـزل فريـق الفتيـان وتوجهـوا إلـى العجـوز ذي السـاق الخشـبية ونظـرات الشـر تقدح مـن عيونهـم ، في حين كان العجوز يتراجع بخطـوات ثقيلـة نحـو الخلف ولا يعلم مـاذا يفعل ، لم يتمالـك جـورج نفسـه ، فركض تجـاه العجـوز ووقـف أمامـه رافعًـا يديـه إلى جانبيـه قائـلًا:

-أرجوكـم دعـوا هـذا الرجـل فقـط ، هنـاك الكثـير مـن المتسـولين في البلـدة ، لا بـد أن تصادفـوا غـيره.

-ومـا شـأنك بـه؟ هـل هـو أبوك أم جـدك؟ هـل نسـيت أنـك يتيـم في بلـد غريب لا قريب لـك فيهـا؟ فهـل وجـدت في هـذا المتسوّل مـا يشـبه أبـاك؟

حدثـه أحـد الفتيـان بسـخرية واسـتعلاء ، فشـعر بـأن تلـك الكلمـات قـد أشـعلت بركانًـا يغلـي في داخلـه ، احمـرّ وجهـه وجحظـت عينـاه الواسـعتان ، وأمسـك بتلابيـب ذلـك الفـتى وهـزه بعنـف وقـال:

-ألست أيضًا ولدًا مخطوفًا من دولة بحر؟

نظر إلى بقية الفتيان بغضب قائلًا:

- وأنت ، وأنت ، وأنت؟ هل أَنْسَتْكم القوة والسلطة طعم الظلم ومرارته؟ هل نسيتم أنكم هنـا مجـرد كلاب مدربـة يرسـلونها للصيـد لتأتيهـم بالفريسـة وهـم جالسـون خلف مكاتبهم؟

دفعـه الفـتى بقـوة وبـدأ شـجار كبـير تدَخّـل فيـه بقيـة الفريـق ، كان جـورج وحيدًا في معركته يتلقـى الضربـات مـن كل اتجـاه ، لكـن هـذا لم يـدُم طويـلًا! رمـى العجـوز الجـوارب مـن يـده ، ورفـع ظهـره وشـد كتفيـه ، وشـمّـر عـن سـاعديه لـيرى الجميـع عضلاتـه المفتولـة ، ودخـل في الشـجار مدافعًـا عـن جـورج.



في تلك اللحظة نزل الضابط من السيارة بعد أن كان يكتفي بالمشاهدة ، ليشترك معهم في تلك المعركة التي لم يحسب لها حسابًا ، لكن العجوز الغريب كان قادرًا على تثبيته أرضًا ، وأخذ سلاحه ، ووجّهه تجاه الضابط قائلًا :

–الجميع بلا حراك أو سأطلق النار ، جورج اصعد السيارة ، إياكم أن تتحرّكوا.

كان جورج ينظر بذهول ، لم يكن يصدق عينيه ، كيف لهذا العجوز أن يفعل كل هذا؟

صعد السيارة ، ولحق به العجوز وانطلق مسرعًا.

–من أنت أيها العجوز المتهور ، هل تعرف عقوبة سرقة سلاح وسيارة



الجيش

-دعك منهم يا أنس ، سنتدبر الأمر ، لا تقلق..

-يا أُنس!! أنت تقول يا أنس!! أنت تعرف اسمي الحقيقي!

أكاد أُجَنّ!

دخلت السيارة في حارات ضيقة ، وبدأت أصوات سيارات الشرطة والجيش تقترب منهما بعد أن تم التبليغ عن الحادثة ، اجتمعت عدة سيارات في المنطقة تطاردهما من شارع لآخر ، لكن العجوز استمر بالهرب بسرعة عالية وكأنه في سباق مع الزمن ، يدخل من شارع ويخرج من آخر ، إلى أن أوقف السيارة في خرابة مهجورة ونزل منها.

-هيا انزل يا أنس

أخرج العجوز من جيبه أعواد ثقاب وأشعل النار داخل السيارة ، فاشتعل فيها حريق كبير وارتفعت ألسنة اللهب عاليًا في منظر مرعب مخيف!

-ماذا ستفعل أكثر أيها المجنون؟ أنت تزيد الطين بلة!

-ستشغلهم هذه السيارة عنا ريثما نتمكن من الهرب ، ربما ظنوا أننا بداخلها وأنهم تخلصوا منا. هيا تعال معي.

بدأ أنس بالركض مع العجوز ، الذي لم يعد عجوزًا!

كانت ساقه الخشبية تمنعه من الركض بسرعة توازي سرعة أنس ، لهذا كان مضطرًا لإشعال الحريق في السيارة عسى أن ينجح في عرقلة تقدم الشرطة ولو لوقت قصير ، عسى أن يتمكنا من الهرب بسلام..

كان يمضي في الحارات الضيقة وكأنه يعرفها تمامًا رغم أنها أزقة

متشابهة متشعبة ، حارات لم يدخلها أنس من قبل أبدًا رغم أنه يعيش في تلك المدينة منذ سنوات ، لكن سيارات الشرطة لم تكفّ عن متابعتهما وملاحقتهما مطلقًا ، بل كادت تحاصرهما في أحد الأزقة المغلقة ، إلى أن دخلا بيتًا مهجورًا وتوجها إلى إحدى الغرف ، هناك في الأرضية في زاوية الغرفة توجها نحو بوابة صغيرة مغطاة ببساط ممزق قديم ، رفع العجوز الغطاء ونزل مع أنس في نفق ضيق معتم ، وأغلق البوابة بهدوء ، في تلك اللحظة امتلأ البيت برجال الشرطة يبحثون في كل زاوية عن العجوز الهارب والفتى المتمرد ، كانت خطواتهم تضرب الأرض بقوة في الوقت الذي كان فيه أنس والعجوز يختبئان تحت الأرض ، ويزحفان ببطء على أمل النجاة من هذا المأزق..

استمر الزحف لفترة من الوقت ، إلى أن وصلا إلى مخرج سري على سفح الجبل.

بدأ العجوز بالصعود بصعوبة فأمسك أنس بيده يعينه على الخروج ، واستمرا في السير معًا وأيديهما متشابكة بقوة يعين أحدهما الآخر على تجاوز الحفر والمنحدرات ، بدأت الشمس بالمغيب ، وساعدهما الظلام ليختفيا عن الأنظار.

أكملا مسيرهما بين الأحراش لساعة تقريبًا ، يمشيان في العتمة في غابة كثيفة مليئة بالوحوش المفترسة والحيوانات البرية ، إلى أن وصلا إلى كوخ خشبي صغير مبنيّ بإحكام بين صخرتين كبيرتين خلف تلّة عالية

-ها قد وصلنا يا فتى ، كيف تجدُ بيتي المتواضع؟

-لماذا أنا هنا؟ لقد سئمت من كل هذا الغموض والتهور والحماقات المتتابعة ، أشعر بأنّي فتى مغفل عندما أشترك معك في ارتكاب حماقة تلو أخرى! من أنت؟ وكيف عرفت اسمي؟ ولماذا سحبتني معك إلى كل هذه المشكلات؟

- ستفوتنا صلاة المغرب ، هيا لنصلي معًا قبل أن تسألني أي سؤال ، هل أنت متوضئ؟

أطرق أنس بخجل.. إنه لم يتوضأ منذ سنوات!

-لستُ متوضئًا

-حسنًا سأتوضأ أولًا ، ثم يكون دورك.

حاول أنس استراق النظر ليتذكر خطوات الوضوء ، كان العجوز يعلم حاجته لذلك ، فتوضأ ببطء وحرص على أن يرى أنس كل خطوة من الخطوات.

وقف العجوز للصلاة ، ووقف أنس خلفه ليصلي أول مرة ، منذ عشر سنوات.

كبَّر العجوز وبدأ القراءة:

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾}

دون أن يشعر.. كانت دموع أنس تنهمر على خديه بغزارة ، لم يكن يستطيع أن يتمالك نفسه ، فهو يعيش لحظات أنس وجمال ودفء حُرم منها لسنوات طويلة حتى جفّ قلبه.

وماذا عن ذلك الصوت!! إنه كصوت حسين في قراءته ، إنه يشبهه تمامًا!! لا يمكن لأحد أن ينسى صوت حسين عندما يقرأ الفاتحة!!

هل صار حسين عجوزًا في عشر سنين ، هل حسين له ساق خشبية؟

أنهى العجوز سورة الفاتحة ، وقرأ بعدها قول الله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قرأها العجوز مترنّمًا بها بصوت حزين مكسور ، يحكي قصة مأساة قد انتهت للتوّ تاركة خلفها قلوبًا فطرها الحزن وأرواحًا قتلها البعد والاشتياق.

في حين كان وَقعها على أنس أكثر غرابة وشدة

«يا إلهي ، إنها قصة يوسف عليه السلام ، كيف نسيتها؟ حدثني عنها أبي ذات مرة تحت شجرة الأترج! وكأنها آيات تخاطبني شخصيًا ، وكأنها تربّت بحنان ورفق على قلبي المضطرب ، وكأنها تبشرني باللقاء القريب ، في القرآن قصة كقصتي!! »

كان سجوده الأول منذ سنوات طفولته المبكرة ، لم يكن يعرف ماذا يقول في سجوده ، لكنه كان يتذكر قوله تعالى (إياك نعبد ، وإياك نستعين)

ويتذكر ما قرأ حول معانيها الجميلة في كتاب التفسير ، فلم يتوقف عن ترديدها.

ومع نهاية الصلاة سمع العجوز يلتفت يمينًا وشمالًا ويقول:

-السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله

أطرق العجوز رأسه مستغفرًا كما كان يفعل أبوه بعد الصلاة ، رفعه بعد ذلك ببطء والدموع تملأ عينيه ناظرًا في عيون أنس ، فرأى الأسى يقطر من قسمات وجهه ، كان أنس ينتظر بشوق أن ينطق العجوز بكلمة ، أن يفتح أقفال هذا اللغز ، أن يبوح له بالسر ، أن يشفي قلبه الذي قتله الشوق والانتظار.

رفع العجوز يده إلى رأسه وأزاح عنه ذلك الوشاح الأبيض الكبير ، مد يده إلى لحيته البيضاء ، أمسكها من طرفها العلوي ، وخلع تلك اللحية المستعارة عن وجهه ، ليظهر تحتها وجه شاب جميل ، بعينين جميلتين كعيني أبيه تنظران نحوه بلهفة المشتاق ، ولحية سوداء مرتبة تزين وجهه وتمنحه هيبة ورجولة ووقارًا.

رفع يده إلى وجه أنس ، ومسح حاجبيه بلطف قائلًا

-رتّب حاجبيك يا أنس ، أريد التحدث مع طفل جميل لا مع طير جارح.

وارتسمت على وجهه ابتسامة جميلة طالما رآها أنس وأحبها ، كانت تلك الابتسامة الوجه الجميل الوحيد للحياة بعدما فقد أبويه ، لم يحتج الأمر إلى وقت طويل ليتذكر: «إنها ابتسامة حسين ، إنها ابتسامة حسين»

-أنت حسين؟ أنت حسين ألست كذلك؟ أنت أخي وحبيبي وسندي؟ أنت القارئ المميز الذي لا ينسى قراءتك في القرآن أحد؟

-أنا حسين ، أنا أخوك.



ارتمى أنس في أحضان أخيه واضعًا رأسه على كتفه يعانقه بحرارة، وصوت بكائهما لا يهدأ.

شد حسين ذراعيه بقوة على أنس ليطفئ شوق الأيام الطويلة القاسية التي قضاها باحثًا عن أخيه على أمل أن يلقاه يومًا، لم يكن يصدق أن الحلم تحقق!

واستمر العناق طويلًا، واستمر البكاء يتردد في صدريهما طويلًا،

يبكيان على أيام قضاها كل منهما جاهلًا بمصير الآخر، أم على ابتلاءات وآلام عاشها كل منهما محتاجًا لأُنس أخيه وعونه واهتمامه، أم على ذكريات جميلة ممزوجة برائحة الخبز وصوت القرآن ونسمات الفجر..

-كيف حالك يا أنس، حدثني عنك، كيف تقضي أيامك.

-دعك مني يا أخي، رِجلك.. ما بها رجلك؟ كيف فقدتها وكيف صار بك الحال هكذا؟ هل أنت تتألم؟

-لا أتألم يا أنس، لا تقلق.

-حدثني إذن، كيف حدث هذا؟

حدث ذلك في اليوم الذي رأيتك تركب شاحنة الجيش مع بقية الأطفال والرعب يملأ وجهك الصغير، فتبعت الشاحنة وتعلّقت بها، ودخلت القاعدة العسكرية على أمل أن أتمكن من تخليصك منهم، لكن خطتي باءت بالفشل ولم أتمكّن من معرفة شيء عنك إلا اسمك الجديد واسم الضابط المسؤول عنك، وأثناء هروبي أطلقوا على ساقي عدة رصاصات، وسقطت في واد عميق مغشيًا عليّ، فظن الجنود أنني قد متّ، فتركوني وانصرفوا.



–وبعدها ، كيف نجوت؟

–عندما استيقظت بعدها وجدت نفسي في كهف مظلم ، تمت إضاءته بواسطة شعلة من نار معلقة على الحائط ، ووجدت امرأة منهمكة في ترتيب أكوام من الكتب في صناديق وإغلاقها إغلاقًا محكمًا ، ليأتي زوجها ويحمل تلك الصناديق ويضع فوقها بعض التراب والصخور وأغصان الأشجار لإخفائها

وعندما لاحظا استيقاظي اقتربا مني ليتعرفا عليّ وأتعرف عليهما.

كانت طبيبة طيبة ، وجدتني هي وزوجها «عليّ» مصادفة أثناء تسلّلهما نحو الكهف ، كانا يحملان مجموعة كتب لتخزينها فيه خوفًا عليها من التلف جراء القصف والحرائق والدمار ، فأخذاني إلى الكهف لتشرف الطبيبة على علاجي ، ولم يكن عندها طريقة لإنقاذي من خطر النزف الشديد إلا في قطع ساقي التي كان بها عدة رصاصات وجروح شديدة لا يمكن علاجها في كهف لا شيء فيه سوى التراب والحجارة وكثير من الحشرات.

كانت تتولى مهمة حماية الكتب القيّمة من الضياع والتلف إلى أن تنتهي الحرب ، فهي تعلم أن استهداف العلم والوعي لدى الشعوب من أهم أهداف الأعداء ، فقامت بواجبها على أكمل وجه ، وكان «عليّ» يقوم برفع الكتب النادرة على شبكة الإنترنت تحسّبًا لاحتمال فقدها ، أخذاني معهما إلى المدينة بعدها ، وسكنت في غرفة قريبة من بيتهما ، واهتما بي كابن لهما ، فقد كنت وقتها فتىً يافعًا أحتاج من التوجيه والإرشاد والاهتمام الكثير ، وكان في تلك الأسرة المباركة من الخير ما أعانني على تجاوز كثير من صعوبات الحياة ، وأكملت دراستي ، ودخلت جامعة للعلوم

الإسلامية تمامًا كما كنت أتمنى وأحلم ، وتخرجت منها والحمد لله

-الحمد الله على سلامتك يا أخي ، فقدت قدمك بسببي إذن.

-هذا قدَري ، وأنا راض به ، المهم أني وجدتك.

-كيف وجدتني في هذا البلد الواسع؟

-كنت أجلس يوميًا لساعات طويلة أبحث في الحسابات الشخصية التي تحمل اسم جورج ، وتخيل مئات آلاف الحسابات التي تحمل هذا الاسم على مواقع تواصل مختلفة!

-يا إلهي!! كمن يبحث عن إبرة في كومة قش!

-تمامًا يا أنس ، حتى وجدت مرة تعليقًا لك كتبتَه تحت صورة لصحن من «الشاورما» تحكي فيه اشتياقك لتذوق لقمة واحدة منها ، تحب بطنك كعادتك ، فتحت صفحتك ووجدت صورتك فيها وقد كبرت وصرت فتى يافعًا قويًّا ، وقد بدأت لحيتك ترسم خطوطها الرفيعة على وجهك الجميل ، وازدادت نظراتك حدة وقوة ، وبقي شعر حاجبيك متمردًا ينتظر من يمسحه برفق ويعيد لهذا القلب أمانه وسكونه ، لا تتخيل مدى سعادتي عندما وجدت صورتك.

أخبرتُ عليًا وزوجه الطبيبة عائشة بالخبر فكانت سعادتهما لأجلي لا توصف ، وبدأنا بالتخطيط للوصول إليك

-تقول عائشة؟ هل هي ذاتها المرأة التي كنت ألتقيها في عالم الأحلام؟

-نعم هي ذاتها ، كان ذاك دورها في الخطة ، في الوقت الذي تسلّلتُ فيه عبر الحدود إلى هنا بعد أن علمت اسم مدينتك من حسابك ، وتمكّنت من الوصول إليك من خلال بعض المعالم التي كانت تظهر في صورك الشخصية ، إلى أن كتب الله لنا اللقاء والحمد لله.



وغدًا عند شروق الشمس نتسلّل عائدين إلى دولة بحر إن شاء الله ، توقفت الحرب منذ عدة سنوات وانسحب الغزاة مهزومين وها نحن نبني دولتنا من جديد بالعلم النافع والعمل الدؤوب في شتى المجالات.

- أعود معك؟ هل تظن أن الأمر بهذه السهولة؟!

-ماذا؟ لا أصدق ما تقول! هل أنت جادّ حقًّا؟! ولم لا تعود معي؟ هل أمضيت حياتي باحثًا عنك لأسمع منك هذه العبارة؟

-لا أعلم يا حسين ، لقد صارت لي حياتي الخاصة هنا ، وعندي ألف سؤال يدور في رأسي لا أجد له جوابًا

-هل تسمع أذناك ما تقول يا أنس؟ حياتك الخاصة؟ هل هذا ما كنت أنتظره منك؟ هل تريد أن تكمل حياتك كضابط في جيش قتل والديك واختطفك من بيتك؟

-ليس الأمر كذلك ، أظنني لن أعود إليهم ، خصوصًا أنني الآن في نظرهم خائن سرق سيارة الجيش وساهم في حرقها ، لا أعلم أي مصير ينتظرني.

-ما الأمر إذن؟ هل غرّتك هنا كثرة الأموال ورفاهيّة العيش في ظلّ تغوّل التقنيّة والمادّة؟

التزم أنس الصمت ، ولم يعرف بماذا يجيب.



بعد عدة دقائق من الصمت ، اقترب منه حسين وأمسك بيده ووضعها بين كفّيه الدافئتين وقال:

-يبدو أنك تشتاق قصص أخيك حسين ، هل تود أن تسمع قصة جديدة؟

-نعم ، بلا شك.



-كان في قديم الزمان فتى في مثل سنك اسمه سلمان ، ربما أكبر أو أصغر قليلًا ، يعيش في قرية من قرى فارس متمتّعًا بجاه أبيه وماله ودلاله وعطفه ومحبته.

كان أبوه رئيس بلدة يعبد أهلها النار ، وكانت مهمة الحفاظ على النار مشتعلة مهمة سلمان.

-إله يحتاج من يبقيه على قيد الحياة!!

-نعم تخيل! أي إله عاجز هذا!



خرج سلمان يومًا من البيت في عمل ، فمرّ بكنيسة للنصارى وسمع أصوات صلواتهم في الداخل ، ولم يكن قد بُعث حينها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت النصرانية الدين السماوي الأخير الذي نزل به وحي السماء ، فدخل إلى الكنيسة واطلع على دين النصارى ، ووجده خيرًا من دينه الذي يحتاج فيه الإله إلى من يبقيه حيًّا ، فرق كبير بين أن يعبد الإنسان النار ، أو يعبد خالق النار!

فسألهم عن علماء هذا الدين فأخبروه أنهم في الشام ، وعند عودته إلى البيت بعد تأخر طويل وقلق من أبيه عليه ، علم أبوه بأنه اطلع على دين النصرانية ، فغضب منه ، وجعل في رجله قيدًا وأمر بحبسه ، فأرسل سلمان إلى النصارى سرًّا أن يخبروه عند تحرك قافلة نحو الشام.

وتجهزت قافلة للانطلاق إلى الشام فأرسل النصارى إلى سلمان يخبرونه الخبر ، فهرب من بيت أبيه تاركًا خلفه بيت سيد البلدة ، مع ما في هذا البيت من رغد العيش وترفه ، تاركًا خلف ظهره حياة الاستقرار والراحة ، مقبلًا نحو حياة الهجرة والتنقل والتعب ، والتحق بالقافلة نحو الشام باحثًا عن الحق والإيمان ، وعندما وصل إلى كنيسة في الشام طلب من رجل الدين النصرانيّ -الأسقف- أن يبقى عنده يخدمه ليتعلم منه الدين ، فوافق الأسقف ، فعاش عنده سلمان خادمًا.

-طلب سلمان من الأسقف أن يعمل عنده خادمًا؟؟!

-نعم خادمًا ، مقابل طلب العلم والعيش مع من يعينه في عبادة الله ، بعد أن كان ابن سيد البلدة طبعًا.



-يا إلهي ، وماذا بعد؟

-اكتشف سلمان أن الأسقف لص فاسد يدعو الناس للصدقة ، فإذا دفعوا إليه صدقاتهم أخذها واحتفظ بها لنفسه! وكانت هذه أول تجربة له مع رجل دين مسيحي!

-أتوقع أنه صُدِم بهذا الدين وقرر العودة لأبيه مجددًا ، فأي دين هذا الذي يكون رموزه لصوصًا؟

-ربما يفعل هذا كثير من الناس اليوم ، يجدون انحرافات سلوكية وأخلاقية عند بعض المسلمين فينفرون من الإسلام كله ، أو يتركون الالتزام ببعض تعاليمه ، ويظنون أن الإسلام هو الذي يعلّم أتباعه هذه السلوكيات الخاطئة.

كثير من الأخطاء التي تراها في مجتمعاتنا المسلمة نتيجة جهلنا أو قلة فهمنا لديننا ، هل تتذكر تلك العصا التي كان أبي يضربني بها؟

-نعم ، مع أنه لم يضربني بها أبدًا إلا أنني أشعر بالخوف كلما تذكرتك وأنت تُضرب بها بقسوة.

- كان أبي رجًلا بسيطًا لم يحظ بفرصة لتعلم الدين الصحيح من أهل العلم الثقات ، فكان يضربني بعصاه ضربًا شديدًا إن أخطأت ، سامحه الله ، كانت تلك مرات قليلة معدودة لكني لم أستطع نسيانها لشدتها ، رغم ذلك كان يحمل خيرًا كثيرًا وقلبًا طيبًا وأخطاء قليلة غفرتها له عندما قارنتها في بحر حسناته ، توقف بموته نهر من العطاء وبتّ يتيمًا أتجرع الجوع والبرد والضعف والحرمان ، ومسؤولًا عن طفل صغير فشلت في



حمايته من الاختطاف رغم حرصي الشديد ، لم يكن أبي سيئًا أبدًا ، فهو بشر يخطئ ويصيب.

-كم أشتاق له ، رحمه الله وغفر له.

-وقد تكون أخطاء كثير من المسلمين نتيجة عادات وتقاليد سيئة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، كمن يمنع الإناث من الميراث مثلًا ، أو نتيجة الالتزام ببعض الأوامر الدينية وترك غيرها لكونها لا تناسب مصالحهم وأهواءهم ، فتجد رجلًا يصلي لكنه يغش في بيعه ، أو يذهب للحج وقد أكل أموال الناس بالباطل ، فينحرف عن صراط الله المستقيم ، ويسبب نفور كل من لا يعرف حقيقة الإسلام ولا يملك وعيًا كافيًا يدفعه للبحث عن الحق.

-قرأت مقالات لبعض الشباب ، يقولون إنهم تركوا الصلاة لأنهم تعرضوا للضرب وهم صغار في أحد المساجد ، وفتيات تركن الحجاب لأنهن تعرضن لسوء معاملة من معلمة محجبة!

-ربما تحصل هذه المواقف فعلًا في حياتنا ، أتمنى أن يتذكر أولئك الشباب وجود مئات الأئمة الطيبين الذين يحببون الناس بالصلاة بحسن خلقهم ، ولا يسمحون للشيطان أن يعطيهم مبررات لترك الصلاة لوجود رجل أو اثنين أو عشرة أساؤوا في أسلوبهم ، فهم محاسبون على عملهم أمام الله لا على عمل غيرهم ، وهم في هذه الطريقة لا يظلمون إلا أنفسهم!

وتلك الفتاة التي تركت حجابها لأنها تحمل ذكرى سيئة مع امرأة



محجبة أنساها الشيطان وجود آلاف المحجبات الطيبات ، وأنساها أن المسلم بشر يمكن أن يخطئ ويصيب ولا يمكن أن يتحول إلى ملاك بلا أخطاء ، وهي في تركها للحجاب لا تظلم إلا نفسها ، يمكن لكل منا أن يكوّن بنفسه الصورة الجميلة المتكاملة للمسلم بدلًا من أن يقضي حياته في ذمّ أخلاق بعض المسلمين باحثًا عن مبرر لمعاصيه ، فليكن هو بسلوكه وأخلاقه داعية خير وصلاح.

سلمان الفارسي كان أكثر وعيًا وفهمًا ، وعرف أن هذا الرجل الفاسد لا يمثل الدين الذي يحمل رايته ، انتظر سلمان إلى أن مات الأسقف وكان رجلًا هرمًا ، فأخبر الناس بحقيقة أمره ودلهم على كنوزه ، فاستخرجوها ، وأخذوا الأسقف الفاسد وصلبوه ورموه بالحجارة ، وعيّنوا مكانه أسقفًا جديدًا ، فكان رجل صلاح وخير ، مؤمن يوحد الله كما ورد في أحاديث عن سلمان رضي الله عنه ، وأحبه سلمان حبًا شديدًا ، إلى أن وافته المنية هو الآخر بعد أن وجّه سلمان إلى السفر إلى الموصل ليلتحق برجل دين هناك لا زال على التوحيد ، فسافر سلمان باحثًا عن الحق إلى الموصل ، ثم إلى نصيبين ، ثم عمورية ، وهاجر بعدها للمدينة المنورة في رحلة حافلة بشتى أنواع الابتلاءات ، لا بد أن نجلس يومًا لنقرأ كل تفاصيلها ففيها من معاني الصبر والثبات ما يثير العجب.

صبر سلمان وثبت واستمر في رحلة بحثه عن الحق إلى أن فاز بلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به وصحبته ، وذلك والله فوز عظيم يستحقه من بحث عن الحق وهاجر وصبر حتى وصل إلى هدفه.

رنّ هاتف أنس ..

-هذه أمي ، لا بد أن الأخبار قد وصلت إليها

أهلًا أمي ، أنا بخ..

قاطعته ماري بكثير من الانفعال:

-أين أنت جورج؟ هل أنت بخير؟ ماذا فعل بك ذلك العجوز المتوحش؟

-أنا بخير أمي ، لا تقلقي بشأني أبدًا.

-لقد تعرض مارك لحادث سير وهو في غيبوبة في المشفى ، لم يعرف بعد ما حصل ، ولا يجب أن يعرف وإلا ستكون في ورطة كبيرة

-يا إلهي كيف حدث هذا؟ وكيف حاله الآن؟

-أخبرني الأطباء أنه بخير ، لكنه لم يستفق بعد من غيبوبته ، لا أعلم إن كان هذا سيستمر طويلًا ، عليك أن تعود ، لا يمكنني البقاء وحيدة ، أنا في ظرف صعب جدًا وأحتاجك قربي.

أغلق أنس الهاتف بحزن.

-انظر إلى حالي يا أخي ، ماذا عليّ أن أفعل؟

-علينا أن نعود لقريتنا في أسرع وقت ، الشرطة تبحث عنا في كل مكان.

-لا يمكنني اتخاذ قرار مصيري بهذه السرعة ، لا بد أن أتريث أكثر ، أريد أن أرى ماري قبل أن أغادر على الأقل

-إياك هذا خطر جدًا ، ربما تعاونَتْ معهم للقبض علينا

-يستحيل هذا ، أنا أعرفها جيدًا

-حتى لو كنت تعرفها جيدًا ، الأمر خطر جدًا إياك أن تخبرها بمكاننا.

-سأحاول..

-صار دورك لتخبرني عن حياتك ، كيف وصلت إلى هنا وكيف تعيش مع هذه المرأة وزوجها

-حسنًا ، عندي الكثير لأخبرك به ، والليل أمامنا طويل.

بعد أن تم أخذي عنوة من المنزل .....

واستمر حديثهم إلى وقت متأخر من الليل إلى أن غلبهم النعاس لينام أنس على ذراع أخيه لأول مرة منذ عشر سنوات.

-هيا انهض يا أنس ، قم لنصلي الفجر وننطلق ، أمامنا سفر طويل.

-صباح الخير حسين.

رفع أنس رأسه مستغربًا وهو يدقق النظر في أخيه

-هل يعقل أنني أقول لأخي «صباح الخير»؟

هل أنا أحلم؟ لا زلت لا أصدق!

وكانت رقبة أنس بانتظار صفعة رن صوتها في أرجاء الكوخ

-هل تشعر بالألم؟ لا أظنك تحلم!

فرك أنس رقبته بيده ضاحكًا

-لازلت كما أنت ، لم تتغير أبدًا.

بعد صلاة الفجر خرج حسين وأنس للبحث عن طعام يسكت جوعهما

-ماذا سنأكل هنا يا حسين ، أكاد أموت جوعًا

-الغابة كبيرة ، وسنجد ما يؤكل قبل أن ننطلق بأسرع وقت ممكن.



الفصل الخامس

أخرج حسين قوسًا ومجموعة سهام ، محاولًا اصطياد حيوان بري أو طير ليكون زادًا لهما

-أوه ما أجمله ، هل تتقن الرماية فيه؟

-نعم طبعًا ، تدربت عليه من أجل هذه الأيام بالذات ، فإطلاق الرصاص ليس خيارًا صائبًا وأنا أحاول التخفي والاختباء في هذه الجبال.

-ربما أتمكن من الصيد بدلًا منك لترتاح من عناء المشي مستندًا إلى عكازك

-اعتدت الحياة مع هذه الساق الخشبية ، كلما نظرت إليها تذكرت أن هناك نعمًا أخرى أبقاها الله لي لا تعد ولا تحصى ولا زلت أتمتع بها ، فأشكره على قضائه وقدره وأسأله أن يجزيني بصبري أجرًا وثوابًا.

وصحيح أنني فقدت قدمي ، إلا أنني أملك قوة في جسدي وذراعيّ ، ألم يثبت لك عراكي مع قائد فرقتكم ذلك؟

-بلى ، كنت أنظر إليك باستغراب وأنا أرى ذلك العجوز قد تحول فجأة إلى مصارع لا يهزم ، لكنك لن تنجح في هزيمتي مطلقًا

-تتحداني؟!

-أتحداك

-اجلس لأرى قوة ذراعك إذن

جلس الأخوان للتحدي في مصارعة ذراعية ، على ساق شجرة مقطوعة التقت أيديهما معًا ، وبدأ النزال

لم يكن حسين يبذل كل قوته ، كانت يده ثابتة على الجذع وعيناه تنظران لأخيه بسعادة وابتسامته تملأ وجهه

-هل هذا أكثر ما عندك؟

-ليس هذا كل ما عندي ، سترى الآن

ضغط أنس بكل قوته على يد أخيه ، واشتدت نظراته واحمر وجهه ، فاضطر حسين أن يعدل من جلسته ويشد ذراعه ويركز أكثر ليحسم النتيجة لصالحه ، فلم يعد أنس قادرًا على الاستمرار أكثر

- لم أكن أظنك بهذه القوة ، أنا أتمرن يوميًا وأهزم كل رفاقي في الفصل

قالها أنس والعرق يتصبب من وجهه ويده تهتز تحت يد أخيه وكأن هزيمته أقرب من فوزه

-الحق يحتاج رجالًا يا أنس

ضغط حسين بقوة معلنًا انتصاره على أخيه ، وضحكاته تملأ المكان

-انتهى الأمر

- أنت قوي جدًا

- سترى بعد قليل كيف أصطاد لك فريسة تملأ بها معدتك

-علمني كيف أستخدمه أنا أيضًا ، هل إصابة الهدف بهذا القوس تتعلق بقوة الذراع فقط؟

-ككل الأهداف الأخرى في حياتنا ، لا يكفي أن تكون ذراعك قوية لتصيب الهدف ، هناك شروط أخرى لا بد من الاهتمام بها ، فالأمر يحتاج بصرًا حادًا ترى به هدفك بوضوح تام ، فمن كان في عينيه غبش أو انحراف لن يصيب الهدف ولو كانت عنده أقوى ذراع ، ومرونة قوسك وجودة صنعه أداة العمل ، أي خلل فيه يعني خللًا في النتائج ، ولا بد أن تعرف التحديات التي قد تعترض سهمك كهبوب ريح مفاجئة لم تحسب لها حسابًا فتغير مسار سهمك.



إن عينـك ترسـم لـك الصـراط المسـتقيم الـذي يشـكل مسـار سـهمك ، وثبـات ذراعـك وقـوة معصمـك تمنـح السـهم القـوة اللازمـة ليسـير علـى نـور عينيـك بثبـات رغـم شـدة الريـح ، فيجتمـع عنـدك وضـوح الهـدف مـع قـوة السـهم وتصيـب فريسـتك

-الصراط المستقيم ، كنت قد قرأت تفسير قول الله تعالى **(اهدنا الصراط المستقيم)** ، وعلمت أنه الطريق الواضح الذي يوصلنا لرضا الله ، وهو الإسلام ، الدين الذي لا يقبل ربنا من العباد غيره ، لكن ، من هم المغضوب عليهم؟ والضالون؟

-المغضوب عليهم من عرفوا الحق وتركوه كبرًا وحسدًا وكفرًا ، كبني إسرائيل ومن أشبههم ، والضالون الذين ركنوا إلى الدنيا ولم يهتموا أصلًا بالبحث عن الحق وتحرّيه ، وكانت مصالحهم وأهواؤهم أهم من دينهم ورضى ربهم ، كالنصارى ومن أشبههم.

-ولماذا كان علينا أن نتذكر صفات المغضوب عليهم والضالين عدة مرات في اليوم مع كل قراءة للفاتحة؟

- هذا الجزء من الآية نرى فيه معالم وصفات المسارات الضالة لنجتنبها ، علمنا الله في كتابه صفاتهم وعلاماتهم وحذرنا من السير في الضلال الذي ساروا فيه ، فحذرنا أن تشبه قلوبنا قلوبهم في القسوة والبعد عن ذكر الله ، والكبر والحسد والبغضاء ، ومشابهتهم بأمراض قلوبهم أخطر بكثير من مشابهتهم بظواهرهم ، فصلاح القلب ينعكس على صلاح العمل بلا شك ، وفساد القلب يعني فساد العمل

-وماذا عن التشبّه الظاهري ، هل فيه اشتراك معهم في سلوك مسارهم؟

-عندما كنتَ طفلًا صغيرًا اشترى لك أبي ملابس جندي ، فكلما



ارتديتها نفخت أوداجك وعبس وجهك وارتفع صوتك ، وبدأت تمشي بقوة تضرب الأرض بقدميك كأنك في معركة ، فإن خلعتها وانتقلت إلى لعب دور الطبيب تصرفت بلطف وهدوء وتظاهرت بالحكمة والعلم كأنك في عيادة ، هكذا تشدّنا ظواهرنا لنتصرف بطريقة تتناسب معها ، فعندما تجعل ظاهرك مشابهًا لغير أهل ملّتك يكون ذلك سببًا في تقليد سلوكهم في الخطوة التي تليها ، فاجعل ظاهرك ملائمًا لتتصرف كما يحب الله ، لا كما يحب غيره ، ما لم تكن مضطرًا لذلك.

من ناحية أخرى ، تخيل لو لم يتميز المسلم عن غيره في ظاهره ، ما الذي سيحصل؟

-سيكون أفراد المجتمع كلهم متشابهين ، ما الضير في ذلك؟

-الضرر كبير يا أخي ، فعندما يشبه المسلم غيره بسلوكه وأفعاله وأخلاقه ولباسه وكلامه ، لن تميز المسلم من غيره في هذا العالم ، سيصبح الناس سواسية أهل الحق والباطل ، فيحرم الناس شعلة النور التي تعينهم في تقفي طريق النجاة ، لن ترى محجبة تدفع الناس للسؤال عن دين هذه العفيفة المتميزة بلباسها الساتر ، ولن تجد مسلمًا رفض شرب الخمر والاشتراك بالسهرات الماجنة والاحتفال بأعياد أهل الباطل يثير تساؤلات حول أسباب تمسكه بدينه رغم كل تلك الإغراءات ، ولن تجد طبيبًا يهدّئ قلوب المرضى بالقرآن بدل الموسيقى لتهدأ نفوسهم ويلامس فطرتهم ، فيدفعهم للبحث أكثر حول القرآن الكريم ، ولن تجد مسلمًا يرفض أخذ الربا من مستدين محتاج فيدفعه للسؤال عن مصدر هذا السلوك الرحيم ، ولن تجد طفلة صغيرة ترفض اللباس الفاضح أمام



زميلاتها في الصف لتعود كل بنت لأهلها وتسأل: ما هو الإسلام؟

المسلم يدعو الناس للإسلام برحمته وجمال خلقه وحسن عمله ، واعتزازه بهويته لن يزيده إلا تميزًا ليصبح كشعلة هداية تجذب حولها كل باحث عن النور في هذا العالم المظلم

ششششش.. إياك أن تصدر صوتًا

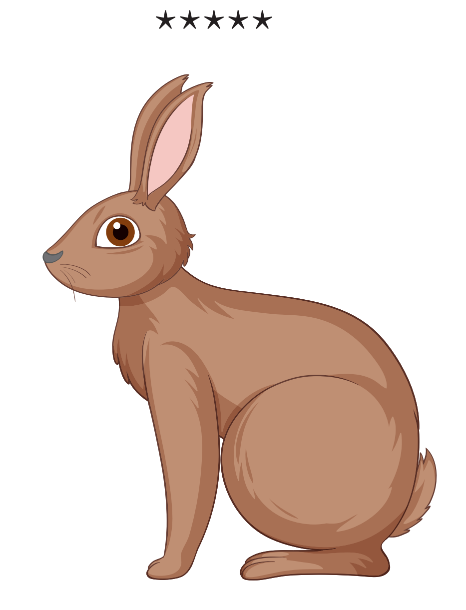
صوب حسين سلاحه نحو أرنب بريّ بعيد ، وأطلق سهمه نحوه باحتراف ليصيبه من الرمية الأولى

-أصبتُ الهدف ، هل رأيت مهارة أخيك؟

-لقد أصبتَ الهدف ، بل كل أهدافك في القلب تمامًا يا أخي.

ابتسم حسين ابتسامة حب ، ومضى مع أخيه لإعداد الطعام

★★★★★



هناك في المنزل كانت ماري تعيش بخوف كبير من احتمال فقدها لجورج ، كانت تتمنى أن يبقى لها كابن بدلًا عن ابنها الذي فقدته ، خصوصًا أنها تعلقت به بعد أن عاش معها كل هذه السنوات ، اتصلت به مجددًا على أمل أن تجد حلًا يعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

-كيف حالك جورج ، أريد أن أراك أين أنت؟

-لا يمكن ذلك ، هذا خطر جدًا.

-قلت أريد أن أراك ، تدبر الأمر بأي طريقة كانت ، وإلا لن تسمع صوتي مرة أخرى أبدًا.

نظر أنس إلى عيني حسين ، فوجده يومئ له بالرفض

-حسنًا ، سأخبركِ بمكاننا ، لكن إياك أن يراك أحد في طريقك إلينا.

أخبرها أنس بالمكان بالتفصيل وحسين ينظر إليه بغضب شديد واضعًا يديه فوق رأسه وكأن كارثة قد حلت به

-ماذا فعلت؟ هل تضمن أنها ستتقن التخفي عن العيون؟

-أرجوك يا حسين ، هي ليست أمي ، لكن لا يمكنني أن أنسى فضلها عليّ ، لا تقلق لا بد أنها ستجد طريقة تصل إلينا دون أن يراها أحد ، هي أذكى من أن تقع في خطأ كهذا ، ولا بد أن تحضر لي بعض الأغراض التي تخصني ، أموالي ، أجهزتي الذكية ، ملابسي وغيرها

-يا إلهي! ماذا فعلت أيها المتهور؟! هيا لنغادر قبل أن تصل إلينا وتحصل الكارثة التي أخشاها

علينا أن ننطلق الآن في هذه اللحظة ، اترك الطعام من يدك وتحرك



بسرعة

-ألا يكفي أنني أطعتك بالذهاب معك وترك عالمي كله هنا؟ أريد أن أودعها لا أكثر

-هل تمنّ عليّ قدومك معي؟ إن كنت ستعود لأجل حسين فهذا رقم هاتفي وعنواني ، ابق هنا وتعال لزيارتي عندما تشتاق لي ، مالم تتلطخ يدك في الجيش بدماء الأبرياء طبعًا ، سواء كان ذلك بشكل مباشر أم غير مباشر ، وقتها عليك أن تنساني من جديد

-لم أقصد هذا حسين ، صدقني لن تحدث مشكلة ، أشعر بهذا

-الانسياق خلف المشاعر دون تخطيط محكم ليس إلا نوعًا من الغباء. ربما ستتعلم هذه الحكمة بعد درس قاس

-تفاءل بالخير ، أرجوك!





-كيف سأتفاءل بالخير وقد بُحتَ بمكاننا لأجل بعض أموالك ومقتنياتك؟ أم لأجل وداع ماري ، هل ستفرح ماري إن رأتنا في السجن؟ هيا لنتحرك بسرعة لا وقت لدينا.

-قلت لك لن أتحرك من هنا قبل وصولها ألا تفهمني؟

خرج حسين من الكوخ غاضبًا بعد أن رأى عناد أنس وإصراره على الانتظار ، جلس على تلة صغيرة لا يدري ما الذي عليه أن يفعله ، هل يترك أنسًا للاعتقال والموت وينجو بنفسه من كارثة محتملة؟ أم يثق بأنس وماري وقدرتها على التخفي بعيدًا عن العيون؟

جاء أنس وجلس بقربه بهدوء

-لم يكن عليّ إخبارها بمكاننا ، الحق معك ، لكن ليس من السهل أن أتركها وأنا الذي ذقت من قبل معنى فراق الأم ، لا زال ألم فراق أمي حيًّا في داخلي كأنني قد فقدتها بالأمس ، لا زلت أتألم لفراق أبي كلما رأيت مارك بغلظته يتجاهلني وينظر إليّ كحيوان مقرف في بيته ، لا زال ألم بُعدك عني يقتلني وأنا الذي لا زلت أشعر أنني في حلم ، هل وجدتك حقًّا؟ لا أصدق أن كابوس فراقك انتهى ، حتى لو انتهى فإن الجرح أعمق من أن يندمل بساعات.

هددتني ماري بأنني لن أسمع صوتها مرة أخرى ، لم أحتمل أن أعيش فراقًا قاسيًا بهذه الطريقة مرة أخرى ، أردت أن أفارقها بحب ورفق على أمل أن نلتقي يومًا ، شعرت برعب شديد يخترق قلبي عندما تخيلت مروري بحادثة فراق قاسية أخرى ففقدت توازني.

أرجوك حسين ، لا تتركني وحيدًا وترحل من جديد ، لن أعود مع ماري مهما حصل ، سأودعها بطريقة تخفف الصدمة عن نفسي لا أكثر ، وداعٌ من ذلك النوع العادي الذي يودع فيه كل الناس العاديون بعضهم البعض ، دون صدمة ، دون جرح ، دون ألم ، دون انقطاع تام ، كرهت الوداع القاسي الذي يحصل في ظرف طارئ بلا مقدمات فيزلزل كياني ، هل تفهمني يا حسين؟

نظر حسين لأخيه نظرة حزن وأسى ، أمسك برأسه ووضعه على كتفه وربّت على ظهره برفق..

-سيزول هذا الألم يا أنس ، سيزول

-أريد أن أعود معك يا حسين ، أريد من يأخذ بيدي إلى المسجد ، ويعلمني معاني القرآن الكريم ، أريد من يحكي لي المزيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصص الصحابة ، أريد أن أسمع صوت الأذان ، أريد أن أعيش في بلد لا أجد فيه ألف طريقة للانغماس في المعاصي والشهوات ، مللت حياتي بعيدًا عن الصلاة ، بعيدًا عن القرآن ، جربت كل أنواع المعاصي ولم أشعر بسعادة مثل تلك التي شعرت بها عندما وقفت بجانبك في أول صلاة وسمعت منك الفاتحة ، شعرت أنني قد وجدت قلبي بعد فراق طويل ، هل جربت من قبل شعور من أضاع قلبه؟

أريد من يأخذ بيدي برفق إلى الحق كلما وجدني أنزلق في معصية.. أريد من يخبرني بعد كل ذنب أن هناك توبة ، وأن الله هو الرحمن الرحيم ، أريد من يزيل معي أشواك الطريق وعقباته على الصراط المستقيم ، أنا وحيد هنا في معركة الحياة ، وحيد بلا رفيق ولا سلاح.



-قرارك هذا عظيم عند اللّه يا أنس ، لكن ثمنه باهظ جدًا لا يدفعه إلا الصادقون..

هاجر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من مكة إلى المدينة تاركًا خلفه أحب أرض اللّه إليه ، وهاجر الصحابة الكرام تاركين أموالهم وديارهم وأهلهم تلبية لنداء الحق في قلوبهم ، فخلّد القرآن ذكرهم تعظيمًا لعملهم وليكونوا لنا في حياتنا قدوة.

قرار عودتك معي قرار عظيم لا يتخذه إلا صادق محبّ ، في بلدنا لا توجد حضارة مادية مثل هذا البلد ، لا أموال كثيرة ولا رفاهية عالية ، قرارك يعني تضحيتك بكل شيء لأجل دينك ، إياك أن تفتنك دموع ماري لتبقى هنا ، إياك أن يتغير رأيك ، إياك.

نعم هناك من يعيش في هذه البلاد مضطرًا ويحافظ على دينه في الوقت نفسه ، له صحبة صالحة ومسجد ومركز إسلامي يتردد عليه ، يعمل عملًا حلالًا ويأكل من حلال ، لا يؤذي ولا يؤذى ، أما أنت ماذا عنك؟ هل هذا حال تصبر عليه؟

-سأعود معك يا حسين ، أعدك بهذا.

★★★★★★

ساعات قليلة مرت... وصلت ماري بعد عناء كبير

-آه عزيزي جورج ، هل أنت بخير؟

-أهلًا أمي ، أنا لست جورج بعد اليوم ، بل أنس ، تمامًا كما كنت في طفولتي

-تقول أنس؟!

من هذا الشاب الذي معك؟ وأين العجوز الذي اختطفك؟

-لا يوجد أي عجوز ، هذا أخي حسين يا أمي ، هل تذكرين حسينًا الذي كنت أحدثك عنه في بدايات قدومي إليكم؟ قبل أن يمنعني مارك من أي حديث حول أهلي وبلدي؟

نظرت ماري إلى حسين بقلق كبير ، فهي لا تعلم ما الذي سيفعله حسين لينتقم منهم جراء اختطاف أخيه.

-لا تقلقي ماري ، أعلم أنك لا دخل لك بما جرى لأخي من سوء ، وحدثني أنس عن إحسانك إليه ومعاملته بلطف ، أشكرك عن كل تلك السنوات التي أحسنت بها إليه ، من توفيق الله لنا ورحمته بنا أن يسّر له امرأة طيبة مثلك.

لكن آن الأوان ليعود أنس إلى أهله وبيته ووطنه ، ألا تظنين هذا؟

كادت الغصة تخنقها ولم تعرف ماذا تقول ، هل تمنع هذا الفتى الذي اختطفوه طفلًا من العودة لدياره؟ هل تمسّكها به نوع من الأنانية وحبّ النفس؟ هل عليها أن تتقبل فكرة عيشها وحيدة مع ذلك الزوج القاسي مرة أخرى؟

-أرجوك يا أنس تعال معي ، هل ستتركني بعد أن قضينا أيامًا جميلة معًا؟ هل ستنسى معروفي لتعود مع أخيك الذي لم تعش معه إلا سنوات قليلة من عمرك؟

مستقبلك هنا يا عزيزي ، دراستك عملك شغفك هواياتك ، كيف تفرط بكل هذا وتعود لبلد أنهكته الحروب؟ هل هان عليك فراق هذا البلد الذي عشت فيه أكثر طفولتك؟ هل هان عليك فراقي وأنا التي أحتاجك اليوم بقربي أكثر من أي وقت مضى؟ ليس لي غيرك في هذه الدنيا أنت تعلم

هذا ، لا تتركني وحيدة أرجوك ، فراقك سيقتلني.

لا تخف.. سأجد حلًا لمشكلتك مع الجيش ، سأسعى جاهدة حتى أخرجك من السلك العسكري لتدرس الهندسة كما تحب وتعمل بها ، لن تضطر لتكون ضابطًا أبدًا.

كانت دموعها تنهمر بغزارة ، وأنس ينظر إليها والعجز يخنقه ، ينظر إلى أخيه الذي انتظر رؤيته سنوات عمره تارة ، ويعيد النظر إلى ماري التي أعطته الرعاية والاهتمام لعشر سنين تارة أخرى ، تمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه ليهرب من اتخاذ قرار مؤلم بكل خياراته.

وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة:

-ما هذا الصوت؟ طائرات مروحية؟

سأل حسين بقلق وهو يحاول النظر من النافذة بحذر وترقّب.

-ساد الصمت المكان ، شخصت العيون وبدأت القلوب تنبض بشدة ، تذكر أنس لحظات اختطافه الأولى ، صراخ الأطفال المذعورين وتوسل الأمهات الباكيات ، تذكر نظرات العجز والقهر في عيون الآباء ، تذكر وحشية الجنود وظلام قبو الاعتقال ، تذكر كل يوم بكى فيه قبل النوم مشتاقًا لأمه ، فاقدًا لأبيه ، محتاجًا لحسين ، وكأن فلم الرعب القديم يعيشه من جديد بكل تفاصيله

بدأت أصوات سيارات الجيش والشرطة تصل تباعًا وتحيط بالكوخ من كل اتجاه

نظر حسين في وجه ماري بغضب

-أيتها الخبيثة ، هل وشيت بمكاننا؟

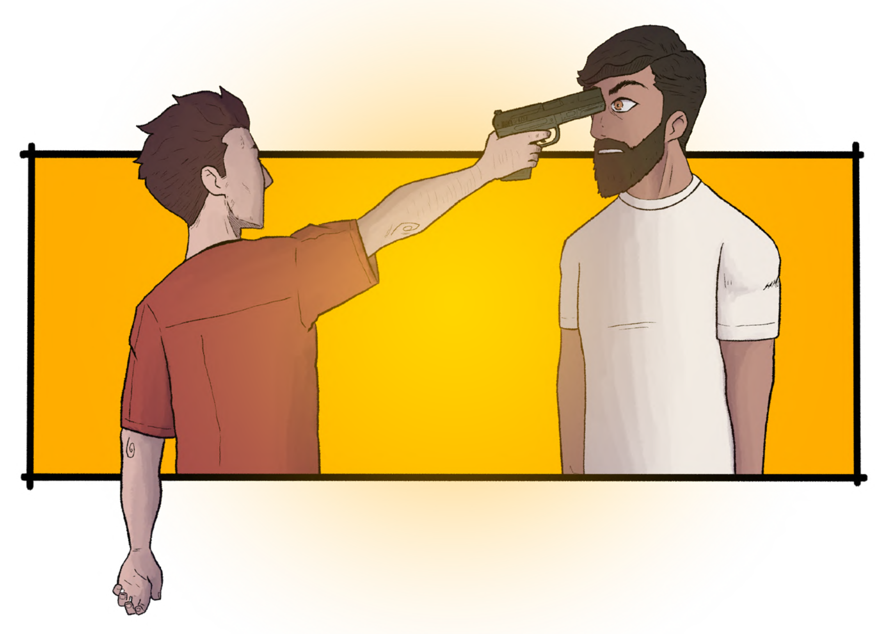
-لا ، لم أفعل ، صدقني!



لقد حدث ما كان يخشاه حسين ، لكنه لم يكن يعلم أن ما سيحدث بعد قليل أكثر سوءًا وبشاعة من توقعاته بكثير!

نهض أنس مسرعًا وحمل المسدس الذي أخذوه من الضابط ووجهه تجاه حسين!!

-انهض وارفع يديك للأعلى! وأنت أمي إياكِ أن تتفوهي بكلمة ، انتهى كل شيء ، لن أعيش المأساة مرة أخرى ، عليك أن تخرج من حياتي يا حسين.



نظر حسين إلى وجه أخيه والصدمة تشلّ أركانه! هل كان أنس يخدعه من البداية؟ أم أن محاولات إقناعه باءت بالفشل؟ هل هزمه الخوف في داخله فآثر الهرب من المواجهة؟ لقد تحول أخوه فجأة إلى «جورج» الذي دفعه أرضًا بلا رحمة في أول لقاء بينهما.

-هيا.. امش أمامي إلى الخارج، وإياك أن تلفظ اسم «أنس» على لسانك، مصلحتي أهمّ من كل تلك الترهات التي كنت تحاول حشو رأسي بها

وضع حسين يده خلف رأسه، وأمسك عكازه بالأخرى ومشى ببطء نحو الخارج، خرج من الكوخ أمام عشرات عناصر الجيش الذين أحاطوا بالمكان وجثا أمامهم على ركبتيه، في حين كان أخوه يوجه سلاحه نحو رأسه

صرخ بصوت عالٍ قائلًا:

-لقد أمسكت بهذا المجرم الذي كان يحاول القيام بأعمال إجرامية تخريبية في وطننا الغالي، بعد أن كنت أراقبه لفترة من الزمن أمام بيتنا، وحاولت التقرب منه والدفاع عنه وإيهامه بأني شريكه في أعماله حتى يطمئن إليّ، ونجحت بمعرفة كل ما يخطط له، وها هو الآن بين أيديكم!

خرج ضابط من بين الجنود وتوجه إلى جورج -الذي كان قبل قليل فقط «أنس» الطيّب- قائلًا:

-ماذا تقول يا جورج؟ هل كنت تخطط لكل هذا؟

-هذا الرجل كان يتنكر بزي عجوز يبيع الجوارب أمام بيتنا، وكنت أراقبه منذ فترة وشعرت بأنه يخفي شيئًا، فتقربت منه وأوهمته بأني في

صفه محاولاً استدراجه لأعرف مخططاته الخبيثة ، لأكتشف أنه شاب في مقتبل العمر ويحمل كل نوايا الشر لبلدنا الحبيب ، أرجو أنني قد قدمت خدمة جليلة لهذا البلد الذي قدم لي الكثير من المعروف ، وها هو المجرم أمامكم

كانت ركبتا حسين ترتجفان تحته بشدة وهو يستند عليهما منتظرًا إطلاق الرصاص عليه

لم يكن يرتجف خوفًا ، بل كان يرتجف قهرًا وألمًا وغيظًا من تصرف أخيه وخيانته له ، وهو الذي كان يظن أنه قد استماله إليه ونجح في إقناعه للعودة إلى بلده ، ليتلقى منه طعنة قاسية في ظهره ويسلمه لعدوه ببساطة لينقذ نفسه من تهمة الخيانة!

أمسك الضابط بحسين ومشى به نحو سيارة الجيش ، دفعه للدخول إليها بعد أن كبّل كلتا يديه ، وأمسك بجورج وكبل يديه أيضا ، فلا بد من اعتقاله على ذمة التحقيق ، وتوجهوا جميعًا نحو القاعدة العسكرية.

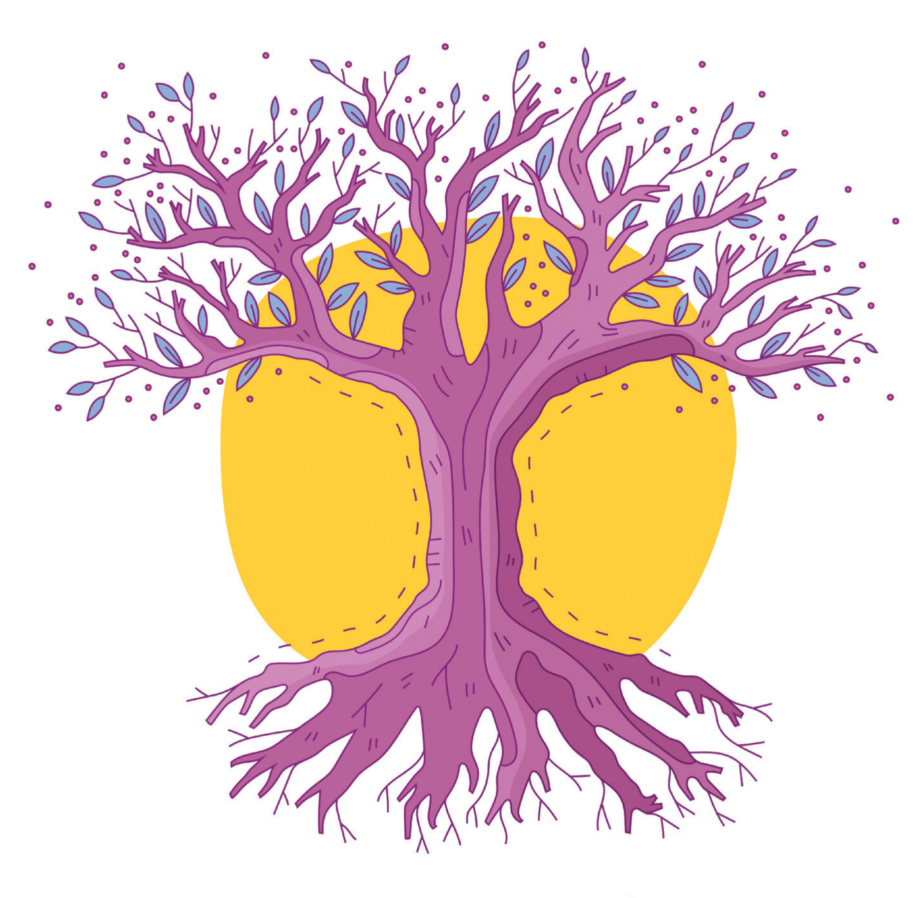
وبدأت التحقيقات حول الحادثة ، كان جورج موضع شك واتهام فيها ، بقي معتقلاً عدة أيام إلى أن نجح بمكره وقوة حجته بإقناعهم ببراءته ، وأن ما قام به مجرد خدعة وعمل ذكي ليكشف أمر هذا الشاب.

–سيدي ، ها قد قمت باكتشاف أمر أحد المتطفلين الذين دخلوا بلادنا بطريقة غير مشروعة بهدف القيام بأعمال تخريبية أو التجسس لصالح العدو ، وإني سعيد بنجاح خطتي في الكشف عن هذا العمل الخطير ، وإني أطالب الآن بحقي في الترفيع لرتبة ملازم في الجيش كما هو موجود في

دستور البلاد رغم صغر سني ، وهذا شرف عظيم بالنسبة لي.

-نفتخر بوجود أمثالك في جيشنا جورج ، فقد أثبتّ براعتك في التحري والاختراق والتجسس ، وتستحق الترفيع الاستثنائي لرتبة ملازم ، وسيجري هذا الأمر غدًا في حفل مهيب مترافقًا مع إعدام حسين في الساحة

كان حسين في تلك اللحظات يتعرض لضرب وتعذيب شديدين ، كل تلك السياط التي تنزل على ظهره بقوة فتحفر فيه الأخاديد ، كانت أقلّ ألمًا بكثير من صدمته بأخيه ، ومن قهر الخيانة ووجعها ، خصوصًا أنه ذاقها من أحبّ الناس إليه



الفصل السادس



وهناك في البيت:

-جورج ، هل أنت واثق مما تفعل؟ هل ذاك الشاب مجرد إرهابي يريد أن يخرب بلادنا؟ نعم ، كنت أريد أن تعود معي ، لكن لا أستطيع قبول فكرة أن تقوم بإعدام أخيك ببساطة هكذا!

-لا يا أمي ، هو ليس أخي ، كيف لأخي أن يعرف مكاني ويصل إليّ أصلًا؟ حتى لو وصل أخي إليّ ما كنت لأخون هذا البلد الذي أعطاني من خيراته الكثير!

-لكنه كان يشبهك كثيرًا.

-لم يكن يشبهني! وإن كان كذلك فهي مجرد مصادفة لا أكثر!

انسي أمره تمامًا ، لم يكن ذلك الشاب إلا جزءًا من مغامرة خضتها في مسار تدريبي لأكون ضابطًا مميزًا في الجيش ، وها قد أثبتّ للجميع ذكائي ومهارتي ، وأنا سعيد بالترقية الاستثنائية التي حصلت عليها ، لقد كان دخول هذا الرجل في حياتي من أجمل الأقدار على الإطلاق ، سأخرج لأحتفل مع أصدقائي فهم في انتظاري الآن ، أرجو أن لا تذكري اسم ذلك الشاب مرة أخرى أمامي ، اتفقنا؟

كل ما عليك فعله هو التفكير في أفضل طريقة للاحتفال في يوم الغد ، يوم إعدام ذلك المجرم وترقيتي إلى رتبة ملازم ، كم أنا محظوظ!

خرج جورج من بيته لتبقى ماري جالسة في غرفته غارقة بأفكارها:

«هل تحول جورج إلى رجل بقلب من صخر تمامًا كزوجي؟ أم أن ذلك الشاب لم يكن أخوه فعلًا؟»

نظرت في زاوية الغرفة ، فوجدت جهاز الكمبيوتر الخاص به قد تركه مفتوحًا ، أغلقت باب الغرفة وجلست تبحث عن طريقة تتواصل بها مع عائشة ، وها قد وجدتها فعلًا ، فبدأت بمراسلتها

-مرحبًا عائشة

-أهلًا أنس ، كيف حالك؟ أخبرني هل تمكنتم من اجتياز الحدود؟ أنا أحاول التواصل مرارًا مع أخيك حسين لكنه لا يرد منذ عدة أيام ، هل أنتم بخير؟

«هو أخوه إذن ، يا إلهي» لم تكمل ماري المحادثة ، فحيرتها من تشابك المشكلات وتعقدها أكبر من قدرتها على الاحتمال.

توجهت ماري إلى غرفتها والقلق يكاد يقتلها «هل سيقوم جورج بإعدام أخيه فعلًا؟ » لم تكن بشاعة هذه الفكرة تغادر مخيلتها.

في اليوم التالي ، نهض جورج سعيدًا وكأنه يوم عرس ، ارتدى زي الضباط لأول مرة في حياته ، ولبس الجزمة العسكرية الجلدية التي طالما انتظر تجربتها ، صفف شعره وملأ الجوّ بعطره المفضل.

وتوجه مع ماري إلى القاعدة العسكرية فرحًا بالتكريم الذي سيحظى به بعد قليل

صعد الضابط إلى المنصة ، وبدأ الخطاب بالحديث حول البطولة التي قام بها جورج وأعلن عن ترقيته إلى رتبة ملازم ، وتمتعه بكل الميزات التي يحظى بها أي ملازم آخر رغم صغر سنه ، وبدأت مراسم التكريم.



تقدم الضابط نحوه وقلّده أوسمة الشرف ، ووضع على كتفيه شارات الرتبة الجديدة ، وسط تصفيق كبير من الحضور

عاد الضابط للمنصة ليعلن عن مصير ذلك الشاب المجرم «حسين»

-وكما هو قانون بلدنا ، يتم تنفيذ حكم الإعدام أمام الجميع ، ينفذه بطلنا جورج بالطريقة التي يختارها بنفسه

-كنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر ، سينال هذا الشيطان عقابه ،



ليكون عبرة لكل من يريد المساس بأمننا ووطننا بسوء ، وإني بعد تفكير طويل قد اخترت تنفيذ الإعدام من خلال رميه من الطائرة ، أبشع طريقة إعدام على الإطلاق

-رميه من الطائرة؟!

بدأت تخرج من صفوف الحضور تمتمات توحي باستغرابهم من هذا الأسلوب

أكمل جورج قائلًا

-وإنني في هذه المناسبة ، أود إهداء هذا الشرف لأمي التي تعبت من أجلي ، وأريد منها أن تصعد معي في المروحية لتشهد بنفسها على بطولة ولدها الذي ربّته ليكون خادمًا مخلصًا لوطنه

استمر الحضور بتبادل عبارات الاستغراب من اختيار جورج ، حتى قطع تلك الأصوات المتفرقة صوت الضابط على المنصة:

-ولأننا في بلد القانون ، لا بد لنا أن نلتزم باختيار جورج ، فليتقدم بطلنا نحو مدرج الطائرات لتنفيذ مهمته ، ولتتفضل أمه ماري لترافقه في هذه الرحلة ، ونحن في هذه المناسبة نتوجه لها بأسمى عبارات الشكر والامتنان لأنها قدمت لبلدنا هذا البطل وتعبت كثيرًا لتصنع منه جنديًا مخلصًا لوطنه

قامت ماري من مقعدها وتوجهت إلى مدرج الطائرات والأسى يعصر قلبها

في حين جاؤوا بحسين وهو يتمايل على ساقه الخشبية والأغلال تذبح معصميه ذبحًا ، كانت الجراح في وجهه وجسده تحكي رحلة عذاب مؤلمة طويلة عاشها في تلك الأيام القليلة خلف القضبان

-هيا أيها القذر ، سيكون إعدامك أول عمل أقدمه لبلدي

دفعه أخوه بقوة بعد أن صعد درجات المروحية بصعوبة ، وثبته على بابٍ متحرك في الأرضية ليرميه عند الارتفاع المناسب



جلست ماري على الكرسي بجانب جورج ، وضعوا أحزمة الأمان وتحركت الطائرة.

بعد ارتفاعها عن الأرض لم تستطع ماري إخفاء دموعها ، نظرت بحسرة إلى جورج قائلة:

-هل أنت واثق من تصرفك يا جورج؟ أنا أعلم أن هذا أخوك حسين ، هل خلعوا كل معاني الرحمة والشفقة من قلبك؟ لم أعد أريدك بجانبي بعد اليوم ، لست إلا مجرمًا مثل ذلك السفاح الوضيع الذي يرقد في المشفى ، مارك

-ألست أنت من ربتني لهذا الهدف؟ ألست من صنع مني جنديًا مخلصًا لهذا البلد؟

-أنا ربيتك في بيتي لأنني أعلم أن ظلمًا وقع عليك من قبل جيش بلدي ، فقررت أن أخفف ظلمًا لا أستطيع رفعه تمامًا ، لكني لم أعلمك يومًا أن الظلم أمر جيد!

-أنت لم تعلميني هذا ، لكن ذلك النادي الذي كنت أعيش فيه أكثر مما أعيش في بيتك علمني ، تلك المدرسة التي كنت أعاني فيها من احتقار الطلاب لأن لوني مختلف وشكلي مختلف وديني مختلف جعلت مني شخصًا حاقدًا على العالم كله ، سأثبت للجميع اليوم أنني لست ذلك الطفل الذي يحتقره زملاؤه لأنه لا يشبههم ، سأثبت لهم أنني أكثر نجاحًا منهم وأكثر انتماءً وإخلاصًا لبلدي منهم

-أكثر انتماءً لبلدك؟ هذا ليس بلدك! أنت أنس ولست جورج أيها

الأحمق! هذا الذي تود رميه بعد قليل أخوك الذي ضحى بنفسه لأجلك ، أي إخلاص هذا الذي تدعيه؟

-كنت قد أخبرتك للتوّ أنني أكثر إخلاصًا لبلدي ، لا لبلدهم!

صمتت ماري لبرهة وقالت:

-ماذا تعني؟

-أعني أنني مخلص لبلدي ووطني ، دولة بحر!

رفع حسين رأسه وحدّق بأخيه منتظرًا فهم ما يقول.

وتابعت ماري:

-ما الذي عليّ أن أفهمه الآن؟ أنا لا أفهم شيئًا أبدًا!

-سنتوجه جميعًا إلى بيتنا في القرية بهذه الطائرة ، ألا ترغبين بمرافقتنا؟

أشار بيده إلى النافذة نحو بلده وقال:

-انظري هناك ، هل ترين تلك المآذن الشامخة ، أنا أنتمي إلى ذلك الوطن الذي أسمع فيه صوت الأذان ، وأجد فيه مصحفًا ، ومسجدًا ، ورفاق درب أسير معهم مشوار الحياة كما يحب الله ، حب ديني هو الأعلى ، هو الأغلى ، سأفعل كل شيء لأتمكن من العيش في رحابه ، ولو دفعت ثمن ذلك غاليًا جدًا.

رفع أنس يديه نحو حاجبيه وأحسن ترتيبهما ، والتفت نحو حسين مخاطبًا ماري:

-هيا فكي قيود أخي المسكين ، يكفيه ما عاشه من عذاب ووجع



بسببي ، أليس كذلك يا حسين؟

قال تلك الكلمات بعد أن ارتسمت على وجهه ابتسامة المحب المشفق ، الذي كان يكتوي بنار من الألم في حين كان مضطرًا أن يتظاهر بالفرح والسرور والاحتفال ، ابتسامة من تحرر من أسر خدعة مؤلمة مُرّة اختار أن يعيش بشاعة أحداثها لأنها حلّه الوحيد ، ليعذب أخاه بيديه ، ويسوقه للموت بيديه ، ويذيقه مرارة الخديعة والخيانة والخذلان

بادله حسين نظرات مليئة بالأمل الممزوج بالألم ، نظرات تحمل كل معاني العتب والوجع والقهر والأسى ، نظرات من رأى نورًا في آخر نفق مظلم ، لكنه لم يتأكد بعد ، هل ما رآه علامة خروج وفرج قريب ، أم بصيص نور خداع سينطفئ مرة أخرى قبل أن يشتد لهيبه ، ما يدريه؟ لعل ذلك النور مجرد أوهام جديدة أو وعود كاذبة ، فطول مكوثه في الكربات أنساه كل أشكال الأمل بالنجاة وصار اليأس رفيق دربه خاصة بعد أن اقترب حتفه بأبشع طريقة على يد أحب الناس إليه..

لم يكن يملك من القوة ما يدفعه ليخطو خطوة جديدة على طريق الأمل ، استمر بالتحديق بأخيه منتظرًا منه تفسيرًا لكلماته الأخيرة ، حتى لا يصاب بخيبة جديدة تقتله ألف مرة في لحظته الأخيرة قبل الموت ، كان يريد أن يموت بهذا القدر فقط من الوجع ، بهذا القدر فقط من الخيبات والصدمات ، كان ذلك طلبه الوحيد من الحياة.

-نعم يا حسين ، نحن في طريقنا إلى بيتنا ، وإلى شجرة الأترج ،

استجمع قواك أرجوك ، سنعود لبيتنا لأداوي جراحك التي سببتها لك بتهوري وغبائي ، سأداويها بيدي على أمل أن تسامحني وتعفو عني.

حررت ماري حسينًا من قيوده ودموع الفرح تملأ وجهها ، استجمع حسين ما بقي من قواه ، ضغط على جراحه النازفة متجاهلًا آلامها ليقوم بصعوبة ويعانق أخاه بحرارة ولسانه يحمد الله الذي نجّاه من الموت الذي كان أقرب إليه من نفسه ، ونجّى أخاه من ارتكاب جريمة لن تزيده إلا ضلالًا وبعدًا عن الصراط المستقيم.

-برفق يا حسين تكاد المروحية تهوي إلى الأرض!

قالها والفرحة تغمر قلبه عندما شعر بذراعي أخيه تحيط به حبًّا وحنانًا ، فكانت سعادته أوسع من هذا الفضاء الرحب الذي يحلق فيه

-الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين ، الحمد لله الذي أنار بصيرتك وهداك للحق والصواب ، كنت خائفًا عليك أكثر من خوفي على نفسي ، كنت أخاف عليك الضياع في بحر من الظلمات ، ليضيع حلمي في أن نلتقي أنا وأنت مع والدينا في الجنة يا أنس ، أريد أن نجتمع معًا في الجنة وعلينا أن نعمل لأجل ذلك

-سنجتمع بهم بإذن الله ، ولن أترك يدك بعد اليوم يا حسين

-كم أنا سعيدة لأجلك يا أنس ، كم أنا سعيدة ، أيها المشاكس ، كيف لم تخبرنا بخطتك؟

- الخطة الكبيرة تحتاج كتمانًا محكمًا يتناسب مع خطورتها ، هذا ما تعلمته بعد آخر كارثة وقعنا بها

ستبدأ الرشاشات الأرضية تلاحقنا بعد لحظات عندما يكتشفون خروجي عن المسار المحدد ، خذوا أماكنكم ، الحدود قريبة ولا يحتاج الأمر منا إلا بعض الصبر والصمود.

–وماذا عن جيش دولة بحر؟ سيتم استهدافنا من قبلهم كذلك

–تواصلت معهم يا حسين ، وهم على علم بقدومنا ، لن يتم استهدافنا من قبلهم.

نظرت ماري برعب إلى الأرض تحتها وتخيلت مصيرها المؤلم

–وهل يمكنك المراوغة بالمروحية بطريقة تنقذنا؟

–ها أنا ذا أتعلم الآن ، سننجو إن حالفنا الحظ!

–تقول الحظ!

فعلًا ، بدأ إطلاق النار باتجاه المروحية ، وضعت ماري رأسها بين ركبتيها وهي تصرخ بأعلى صوتها ، في حين كان حسين يتمسك بقوة بقواعد الكرسي حتى لا يتخبط يمينًا وشمالًا ، فالمسكين لا مقعد مخصص له!

وراح أنس يطير مسرعًا نحو حدود بلده ، يراوغ بمروحيته يمينًا وشمالًا ، فينجح في تفادي الأعيرة النارية مرات ويفشل أخرى ، وبدأت المروحية تتهاوى شيئًا فشيئًا وتفقد توازنها ، استمر أنس في توجيهها نحو الحدود ، ونجح في تجاوزها معلنًا وصوله لبلاده وابتعاده عن منطقة الخطر ، وهبط بالطائرة في أقرب مكان ممكن.

نزل الجميع من الطائرة ورؤوسهم تدور بعد أن خاضوا تجربة تشبه وجودهم في قطار الموت في مدينة الملاهي ، لكن بشكل أكثر عنفًا ودورانًا وخطرًا.

هنّأ بعضهم بعضًا لوصولهم سالمين ، ووجدوا الوقت الكافي والطريقة

المناسبة للاحتفال باجتماعهم من جديد على الأرض ، بعد احتفالهم للحظات خاطفة كادت تودي بهم في السماء ، وكانت مجموعة من جنود دولة بحر في انتظارهم للاطمئنان على سلامتهم

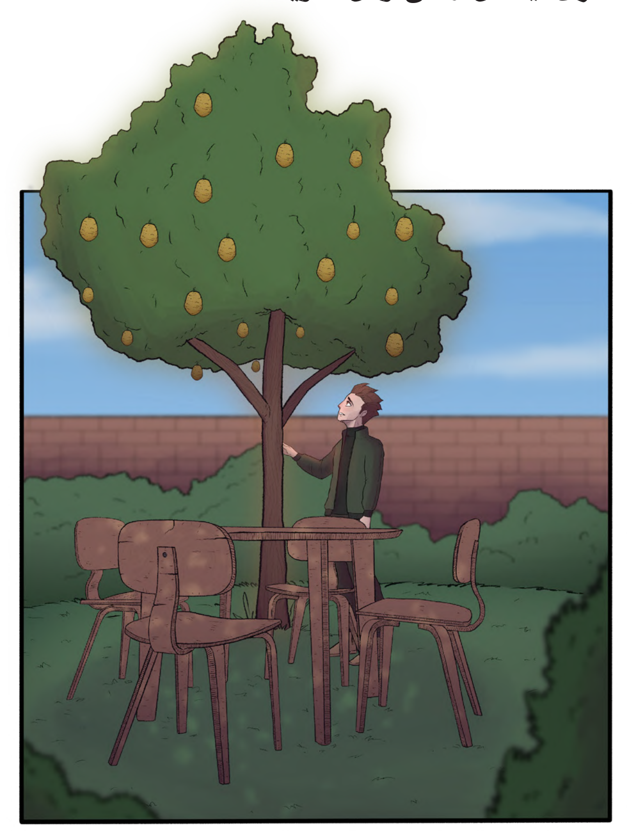
-ها قد أوصلتكم بدوري داخل حدود بلادنا ، ما الخطوة التالية يا حسين؟

-سأتواصل مع عليّ وعائشة ، هم هنا أهلي وأسرتي ، سنذهب إليهم أولًا فلا بد من علاج جراحي هذه المرة من جديد.

بعد أيام:

-ها قد وصلنا إلى قريتنا يا أنس ، هيا تعال لترى بيتنا.

فتح حسين باب بيتهم في القرية ، ودخل أنس متأملًا بحب وشوق أدق التفاصيل فيه ، لا زالت شجرة الأترج خضراء مثمرة ، وتلك الأريكة تحتها لا زالت في مكانها تنتظر جلّاسها ليتدارسوا بينهم كتاب اللّه وسيرة نبيه ، وذلك التنور في الزاوية لا زال هناك ينتظر من يوقد نار الحب فيه ، ليشتمّ رائحة أمه الدافئة مع رائحة الخبز ، لا يزال طيف أبيه وهو ينظر إليه بحب يلاحقه أينما التفت ، ولا تزال ضحكات أمه وكلماتها ترنّ في أذنيه مع كل ذكرى في كل ركن وكل زاوية.



كان البيت مهجورًا من ساكنيه ، لكن حسينًا لم يتوقف عن زيارته باستمرار ليحافظ على بعض معالم الحياة في جنباته ، وكأنه كان يؤمن بعودة أخيه إليه يومًا ما ، فلا بد أن يكون البيت جاهزًا لاستقباله.

-ما رأيك يا أنس ، هل تحب أن نعود لنسكن في هذا البيت؟ أم نبقى في المدينة؟

-بل سنبقى هنا ، سنعيد الحياة لهذا البيت ، وستعيش ماري في بيت قربنا ، نعم هي ليست أمي ، لكني لا أستطيع تركها وحيدة وقد صارت مسنّة تحتاج مني العون ، وأرجو الله أن يهديها للإسلام

توجه أنس إلى ماري التي كانت تتأمل البيت الريفي الجميل باهتمام

-أودّ أن تبقي معنا هنا يا أمي ، لتصنعي لنا فطائر الزعتر على هذا التنور يوم الجمعة ، وتجلسي معنا تحت شجرة الأترج نقرأ سويًّا كل يوم.

- غدًا موعد تسليمي إلى سلطات دولتي يا أنس ، وها هو زوجي ينتظرني وقد صار بصحة جيدة ، هل نسيت؟

-أرجوك ابقي معنا ، أعلم أنني أخطأت التصرف عندما أخرجتك من بلدك بهذه الطريقة ، كانت تلك واحدة من حماقاتي التي لا تنتهي ، وها هي وكالات الأنباء صدّعت رؤوسنا بأخبار ماري المخطوفة والتحليلات السياسية والأمنية حول هذا الحادث الخطير!

-بدلًا من هذا الكلام الفارغ أخبرني بطريقة أذرف بها الكثير من الدموع أمام كميرات الصحفيين في الغد وإلا سيتم اتهامي بأنني أحد

أفـراد جماعـة مـن الفاريـن مـن القانـون!!

ضحـك أنـس بعـد أن تـوردت وجنتـاه مـن الخجـل ، لا يعلـم هـل عليـه أن يفـرح لانتهـاء القصـة علـى خيـر قبـل أن تحـدث أزمـة سياسـية جديـدة بـين البلديـن ، أم عليـه أن يحـزن لبعـده عـن مـاري

-لا يمكـنـني منعـك مـن العـودة إلى بيتـك وأنـا الـذي ذقـت ألـم البعـد عـن بيـتي وأرضـي ، لكـني أرجـو أن تفكـري مليًـا قبـل موعـد التسـليم في الغـد.

تـرك أنـس وحسـين المجلـس وتوجهـا إلـى بسـتان أبيهمـا لرؤيتـه والاطمئنـان عليـه ، في حـين بقيـت مـاري وعائشـة تتبـادلان أطـراف الحديـث.

عائدٌ إلى ظلالِ الأترُجّ



-ربما كنت تتواصلين مع أنس لشهور طويلة قبل لقاء أخيه حتى تمكنت من إقناعه بالعودة؟

-لا أبدًا ، لم أتكلم معه سوى مرتين لدقائق معدودة!

-هل هذا يعقل؟ كيف اقتنع بهذه السرعة وأنا التي كنت أظنه قد ألقى كل ماضيه خلف ظهره وتشرّب ثقافتنا وقيمنا.

-أما أنا ، ورغم عدم معرفتي بأمه سمية ، إلا أن حديث حسين عنها جعلني على ثقة بأن أنس سيعود مع أول فرصة تتاح له ، مع أن حياتهما كما ترين ، بساطة شديدة وافتقار لأكثر مظاهر الحداثة الموجودة عندكم أو حتى في مدننا.

-ما الذي دفعه للعودة إذن؟

-أمه سمية ، أمه التي أحسنت غرس بذور الإيمان في قلبه ، وحفرت معالم هويته في نفسه رغم صغر سنه ، فلم يمحها تتابع الأيام ، وما فعلته أنا هو أني رويت تلك البذور بماء الذكريات ، ونفضت بعض الغبار عن هويته الأصلية فرأى بعض معالمها ، وتحفز ليبحث بنفسه عن كل المعالم الأخرى التي نسيها ، فتذكّر رائحة الخبز وشجرة الأترج ، وابتسامة أبيه وحبه وحنانه ، وعادت كلمات أمه المؤمنة تروي ظمأ قلبه ، تذكّر معنى الرحمة والإيمان ، تذكر حلاوة القرآن ، تذكّر صوت حسين في صلاته ، تذكّر جلسات الحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تحت شجرة الأترج ، فشعر أن ذكرياته القديمة تلك أكثر انسجامًا مع فطرته التي فطره اللّه عليها ، وأكثر دفئًا وحنانًا وملامسة لشغاف قلبه ، فكل الترف الذي كان يعيشه عندكم لم يلبِّ حاجته الفطرية للإيمان باللّه والإحساس بحلاوة العبودية بين يديه.

-حاجته الفطرية للإيمان؟

-نعم ، فالإيمان بالله والقرب منه فطرة غُرست في قلوبنا ، فصار هذا القلب لا يعرف طعم السعادة والأمان بعيدًا عن الله تعالى القائل:
{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}
[النَّحلِ: ٩٧]

- الروابط التي تربط بينكم والقيم التي تحملونها ليست موجودة عندنا ، تلك القيم والمعاني الإيمانية النبيلة كانت بوصلة للخير لم تخطئ وجهتها في قلب أنس رغم طول السنين.

-إنه الإسلام بقيمه وتعاليمه وعزته يا ماري ، استطاع النبي صلى الله عليه وسلم تربية أصحابه تربية إيمانية وعملية جعلت منهم إخوة متحابين مترابطين بقوة رغم اختلاف انتماءاتهم العرقية والقبلية ، ودفعتهم لترك حياة التفاخر بالمال والجاه والسلطان والتحول إلى العمل الجاد في سبيل دينهم وعقيدتهم ، ودفعتهم لبذل أموالهم وأرواحهم لله بلا تردد ، وجعلت منهم قادة قادرين على إسقاط أعظم إمبراطوريتين -فارس والروم- بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بسنوات قليلة لينشروا الإسلام في العالم كله ، معتمدين في ذلك على اتباعهم لتشريع رباني محكم يعينهم في نشر الحق والعدل أينما حلّوا

- صرت أنظر لدينكم بطريقة مختلفة بعد أن التقيت بك ، لستِ امرأة جاهلة ولا متخلفة كما يدّعون ، بل أنت بحجابك وجلبابك وسمرتك الجاذبة تملكين من الإيمان والقوة والحكمة والوعي ما تفتقده داعيات

التحرر في بلادنا ، يكفي أنك تعيشين حياتك مع ابتسامة لا تفارق وجهك وكأنك تملكين الدنيا ، هنيئًا لك يا عائشة.

- سعيدة لأنك ستحاولين البحث أكثر عن الحقيقة ، فأنا أؤمن تمامًا أن كل من يبحث عنها بصدق لا بد أن توصله في النهاية إلى الإسلام.

-أم أنس كانت أمًّا عظيمة بلا شك ، فعلت رغم موتها ما أعجز عنه في حياتي ، رحل عني ولدي يا عائشة ، لكنه لم يعد كما عاد أنس ، شغلتني الحياة عن بناء روابط متينة بيني وبينه ، ولم أزرع فيه مفهوم البر والإيمان الذي يربط بينكم بهذه القوة ، فلم يجد في قلبه ما يدفعه ليعود.

سأسافر غدًا إلى بلدي وبيتي ، اهتمي بأنس يا عائشة ، هو أمانة عندك.

★★★★★★

بعد عدة سنوات:

-هيا تقدم يا أنس ، سنمنحك اليوم شرف افتتاح حفلنا

-شكرًا يا حسين.

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله.

نحتفل اليوم بافتتاح فرعنا الخامس للتعريف بالإسلام ، دخل الإسلام عن طريق مراكزنا عشرون ألف مسلم جديد حول العالم ، بعد أن نجحنا بإيصال الصورة الحقيقية عن الإسلام إليهم ، وإزالة عشرات الشبهات التي انتشرت حول ديننا بمكر لصدّ الناس عنه ، نجحنا بملامسة فطرتهم ليشعروا بالإيمان بالله الذي قد فُطروا عليه ، وضمهم إلى أمتنا ليكونوا من أتباع نبينا محمد نبي الرحمة عليه أفضل الصلاة والسلام ، عسى أن



نلقاه جميعنا يوم القيامة في زمرة المتقين عند الحوض المورود ، لنشرب من حوضه شربة ماء لا نظمأ بعدها أبدًا ، ونفوز جميعًا برضا اللّه وجنات النعيم.

نجحنا أيضًا في استقبال آلاف الطلاب المسلمين حول العالم ليتعلموا كتاب اللّه ، وسيرة حبيبنا رسول اللّه ، ويتعلموا العلم الشرعي الذي لا بد منه لكل مسلم يحب دينه وأمته ويسعى لنهضتها ، ليَخْرُجَ من بيننا يومًا ما علماء ربانيون ينيرون العالم بهدي الإسلام ويدّعون الأجيال للصراط المستقيم.

سأحكي لكم عن الخطوة الأولى لهذا المشروع الجميل ، لتعلموا أن عملًا كبيرًا من أجل نهضة الأمة يبدأ من خطوةٍ واحدة يخطوها قلبٌ مؤمن فطن ، فنحن في زمن لا يسمح لنا بحياة الرخاء والراحة والحرص على الذات ، في زمن يحتاج منا التفكير بمصلحة الأمة والعمل لأجلها بجد وعزيمة لا تنتهي.

بدأ هذا كله عندما كانت أمي تجلسنا تحت شجرة الأترج تعلمنا كتاب اللّه ، وتغرس في أعماق قلوبنا حب رسوله ، كنا نتعلم من دمع عينيها ما لا نتعلمه من ألف كتاب ، ونتشرب من حماسها الذي يزين كلماتها وتحكيه نبرات حروفها الإيمان والإخلاص

علمتنا أن اللّه يحب أن يكون كل منا مؤمنًا عاملًا بكتاب اللّه يفوح منه عبق الجمال مثل ثمرة أترج ، وأن الأمة اليوم تحتاج منا أن نغرس في كل أرض شجرة أترج ، لتشرق شمس أمتنا عندما تثمر أشجارنا رجالًا عظماء كسالم مولى أبي حذيفة وسلمان الفارسي ، ونساء عظيمات كأمنا خديجة وعائشة الصديقة.



كان أخي حسين –بتوفيق الله– تمامًا كما أرادت أمي ، كثمرة أترج يفوح عطرها ليملأ الأرجاء ، تعلَّم كتاب الله وسنة نبيه ، وجعل من نفسه مشكاة تنير قلوب التائهين ، وكنت أنا أحد الناجين الذين امتدت لهم يد حسين وانتشلتهم من الضياع ، محتملًا في سبيل ذلك الكثير من الألم والوجع والابتلاءات ، ضمّني إلى طلابه طلاب العلم ، وعلّمني مما عنده من علم ونور ، حتى صرت معه جنديًا في هذا الميدان ، وما توفيقنا إلا بالله.

وشاء الله أن نلتقي أسرة عليّ وعائشة ، تلك الأسرة الطيبة المباركة التي اجتمع أفرادها على غايات نبيلة ، وتعاونوا فيما بينهم على نصرة الدين والأمة ، فعندما كان الناس يهربون للنجاة بأرواحهم كان همّ هذه الأسرة حماية الكتب الدينية وحفظها من التلف في كهف مظلم موحش لا ينفع إلا ليكون مأوى للضباع وجحرًا للأفاعي.

وكان ذلك الكهف المليء بالتراب نقطة البداية ، حين جعلنا منه مكتبة عامة تحت الأرض ، بعد أن قمنا بترتيبه وتنظيفه وتنظيمه ليمنح القراء أجواء هادئة تملؤها سكينة وراحة نفسية لا مثيل لها فوق الأرض ، وتجمع بين أهل العلم والفكر والثقافة ، الذين خرجوا بفكرة إنشاء مراكز الدعوة والعلم الشرعي ، لتكون تلك المراكز أشجار أترجّ خضراء يقصدها كل باحث عن الحق ليجد في ظلالها حلاوة الإيمان ، ويعود إليها كل تائه باحث عن قلبه ، يهرول إليها ليجد ذاته وأمانه وسعادته في ظلالها ، فتهدي أشجارنا للأمة كل عام أطيب الثمر ، نعم ، تلك الشعلة التي كنا نشعلها في كهف مظلم يومًا ما أضاءت اليوم قلوب آلاف الناس حول العالم.

قاطعت عجوز خطاب أنس وهي تدخل قاعة الحفل بصوتها المتهدج وخطواتها البطيئة قائلة:

-هناك امرأة مسلمة تبحث عن وظيفة (أمّ) ، وقد تدربت جيدًا على قراءة سورة الفاتحة ، وصناعة الخبز على التنور وعمل فطائر الزعتر ، هل تجد عندك فرصة عمل يا أنس؟

بحجابها الساتر الجميل ووجهها الأبيض المنير ، وقفت ماري أمام أنس تنظر إليه بعينين مشتاقتين وابتسامة ترتجف ببكاء الفرح ، ليرفع أنس صوته بالتكبيرات في قاعة الحفل سعادة بإسلامها ، وفرحًا بعودتها من جديد وانضمامها إلى أفواج السائرين إلى الله المتنافسين على مغفرته ورضوانه.

{سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ}
[الحَدِيدِ: ٢١]

كان "أنس" يتيمًا..

فقد أبويه قبل سنوات في الحرب، وعاش في كنف أخيه الطيب "حسين"، الذي بذل كل جهده ليمنح أنس بعضًا من دفء وحب وحنان.
لكنه للأسف، لم يتمكن من حمايته عندما كانت لغة السلاح هي الأقوى!

وجد أنس نفسه بعد سنوات مُجنّدًافي جيش من احتلوا أرضه، ويتجهّز لحمل السلاح الذي قُتل برصاصه والداه، يطفئ كل بصيص من نور في قلبه قبل أن يتوهّج، ويرتقي في سُلّم الظلام بفخر ليثبت للعالم أجمع أنه موجود!

لكن شيئًا ما حرّك في قلبه المواجع والذكريات، ومسح غبار النسيان عن بعض معالم الماضي، لينير قلبه من جديد بشعاع ممتد من مشكاة كانت تضيء يومًا تحت شجرة الأُترُجّ.

-لماذا شجرة الأُترُج؟ وما أثرها في حياة أنس؟

-هل هناك شيء يستحق أن يترك أنس حياة السلطة والقوة والترف لأجله؟

-ما سرّ ذلك العجوز غريب الأطوار ذي القدم الخشبية؟
وما سرّ دخول عائشة عالمه؟

- هل ينجح حسين في إزالة تلك الغشاوة التي غطت قلب أنس بعد أن غُسل عقله بطرق شتى؟ ماذا عن كل تلك العقبات التي كانت تحول بينه وبين هدفه؟

- ماتت سمية منذ سنوات طويلة، لكنها رغم ذلك كانت صاحبة الدور الأكبر في انتشال أنس من مستنقع الضلال الذي غرق فيه، كيف تمكنت من هذا؟

"عائد إلى ظلال الأُترُج"

رواية قد تغير خارطة طريق حياتك بعد أن غيرت أحداثها من قبل طريق أنس، فهل سنبحث بدورنا عن شجرة أُترُجٍ لِنَستظِلّ بها؟ هل سيأتي يوم لنشارك فيه في غرس أشجار الأُترُج في هذا العالم؟

براءة الشامي
إيميل:BARAAALSHAMISY@GMAIL.COM



